
أونوريه دي بلزاك
الأبُ الخالد
٧ قروش
روايات الهلال

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤٨ * ديسمبر ١٩٥٢ * ربيع الأول ١٣٧٢

No. 48 * December 1952

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما — فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا سوريا — فى لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا — فى الأردن ١٠٠ فلسا — فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٧٠ قرشا — فى سوريا ولبنان ٩٠٠ قرش سورى او لبنانى — فى المملكة العربية السعودية والعراق والأردن ٩٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٤ ١/٢ دولارات — فى سائر انحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا او ٢٥ شلنا .

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات البريد او حوالات نقدية او شيكات — **فى خارج القطر المصرى** : بموجب حوالة مصرفية على احد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد او العملة الأجنبية

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك — القاهرة

العنوان البرقى : روايات الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاعلانات : يتفق بشأنها مع قسم الاعلانات بدار الهلال

كلمة التحـــرير

كتب بلزاك هذه الرواية وهو فى ربيع الحيـــاة ، واوج الشباب ، فقد كان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد درس الناس ، وعرف الطبائع البشرية الأصيلة ، فهو يقدم فيها نموذجا بشريا من نوع أصيل ، هو الأب جوريو الذى خلق أبا وكفى ، وكانت أبوته هى كل شىء ، بل هى الأبوة الخالدة التى لاتعرف غير الحنان الجارف ، والتضحية الصادقة التى طغت على كل شىء وسلبته كل شىء ، ولم تعرف فى الدنيا شيئاً اسمه حب الذات أو اسمه الحق أو المنطق أو الأخــلاق ، ما دام الأب يهدف إلى سعادة أولاده

ولقد صور بلزاك فى رواياته الحيـــاة الانسانية ومافيها من مفارقات سماها هو « الـكوميديا الانسانية » ، وهى فى الواقع أحفل بالدموع منها بالابتسام ، وادعى إلى احتقار المجتمع الحافل بالمآسى . ولهذا كان الهدف الأول من هذه الرواية هو النقد الاجتماعى ، وتصوير النفس الانسانية ، بما فيها من فضائل ونقائص ، فهــذا الأب الفريد فى بر الأبوة يقابله عقوق البنوة العجيب، وإلى جوار ذلك شخوص تمثل النفاق، والطمع والخداع والقسوة .. والـكاتب المبدع هو الذى يخلق نماذج بشرية ، كلما طالعها الانسان عرف فيها البشر ، وعرف الطبيعة البشرية ذات العجائب والمفارقات

ولهذا كانت رواية « الأب الخالد » من الروايات الفذة التى ترتفع فوق المألوف فى الصور الأدبية ، والانتاج القصصى الجيد فقد جرى بلزاك فى إبداع النماذج البشرية مع دستويفسكى العظيم أعظم المبدعين فى هــذا الميدان ، وكلاهما ارتفع فى الابداع الى ما فوق الزمان والمكان

▭

أما الرواية التـــالية ، فهى « مغامرات مستر بيكويك » للقصصى الأشهر شارل ديكنز ، وتصدر فى ١٥ يناير القادم . وهى الرواية المقررة هذا العام على طلبة شهادة التوجيهية بالمدارس المصرية ، وقد ترجمناها ترجمة وافية . وتمتاز هذه الرواية بجمال خيالها ، وحيويتها الدافقة ، وروحها الطريفة الضاحكة . وهو يعرض فيها صوراً ساخرة من أولئك المترفين الأدعياء الذين حرمتهم الطبيعة من المواهب الممتازة بقدر ما أغدقت عليهم من غرور . ولئن كان ديكنز خليقـــاً بالقراءة فى كل زمان ، فهو بها أخلق فى وقتنا هذا ، وقد نهضنا نهضة مباركة للقضاء على المخلفات وتصحيح الأوضاع والانتصار للعدالة الاجتماعية

الأبُ الخالد

تأليف

الكاتب الفرنسي

أونوريه دي بلزاك

شخصيات الرواية

الاب جوريو : شيخ في السبعين في زمن هذه الرواية ، تركزت فيه عواطف الأبوة وتجرد من كل ماعداها . من العامة أثرى من الاتجار في السوق السوداء ، وجرد نفسه من ثروته ليهب كلا من بنتيه مليوناً تتزوج به رجلا من علية القوم

دلفين : ابنة جوريو وبارونة دى نوسنجين ، عقيلة رجل من كبار رجال المال والأعمال فقط . اشتركت مع شقيقتها في التبرؤ من أبيها بعد زواجهما لخجلهما من سوقيته

انستازى : شقيقتها ، كونتس دى ريستو ، عقيلة رجل من أعرق نبلاء فرنسا ، كانت أشد على أبيها من أختها

ايجين : شاب من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر ، فاعتزلت في ضيعة حقيرة تحاول ستر اسم « دى رستنياك » وتعقد الأمل على هـذا الشاب ايجين الذى يدرس الحقوق في باريس كى يقيل عثرة الأسرة

مدام فوكير : أرملة عجوز غليظة القلب شحيحة ، تدير خاناً ينزل به الأب جوريو والشاب ايجين

فوتران : نزيل آخر بالخان ، يمتزج فيه الإقدام بالطيبة والمرح ، وسيكون له مع ايجين شأن وينتهى أمره نهاية تثير الدهشة

فيكونتس دى بوسيان : سيدة عظيمة المكانة ، تمت بالقربى الى أسرة ايجين ، تقدمه للمجتمع وتمهد له النجاح فيه

مؤلف الرواية



كان فى العشرين من عمره حينما أتم دراساته العالية فى القانون والآداب سنة ١٨١٩ . وأراد أبواه وأفراد أسرته أن يعمل محامياً لكنه أبى إلا أن يتفرغ للشعر والتأليف ، وغادر قرية « فيلباريس » مقر أسرته قاصداً إلى باريس حيث أقام وحده بغرفة صغيرة متواضعة ، وأخذ يقضى نهاره فى الدرس والبحث والطواف فى العاصمة الكبيرة ، ثم يعود لغرفته فى المساء فيعد طعامه بنفسه ويقضى ساعات فى الكتابة على ضوء شمعة أو مصباح صغير

ولم تلق مسرحيته الأولى « كرومويل » ما كان يرجو من نجاح ، وكذلك رواياته الشعرية والنثرية الأخرى التى ألفها فى ذلك الحين ومن بينها « القرصان » و « القديس لويس » و « روبير دى نورماندى » و « سيللا » . فاضطر إلى العودة لقريته إذ عجز عن تدبير أمر معيشته بنفسه بعد أن انقطعت عنه الاعانة المالية التى كان يتلقاها من أبيه . وعبثاً حاول هذا أن يقنعه بترك الكتابة والالتحاق باحدى الوظائف الحكومية أو التجارية ، إذ كان لا يطيق قيود الوظيفة ولم يداخله اليأس من أن يصير كاتباً عظيما كما يريد

وفى سنة ١٨٢٢ عاد لباريس مع أسرته التى انتقلت إليها ، وأخرج كثيراً من الروايات بأسماء مستعارة ، ثم عمل فى الصحافة وكتب فصولا مختلفة فى الأدب والفن والتاريخ والعلوم النفسية والتجارة والصناعة وغيرها . ونشرت له سلسلة من الروايات البوليسية وقصص المغامرات والأقاصيص الصغيرة بلغ عددها حوالى الأربعين ، لكنه لم يكن راضياً عن أكثرها

وبقى على ذلك سنين ، يكتب ليعيش ، ويواصل البحث والدرس والاطلاع ، وعرف قلبه الحب خلال ذلك غير مرة ، لكنه لم يوفق فى حبه وبقى بعد أخته «لورا» صديقته ومرشدته الأولى ويكتب إليها بعد أن تزوجت ليبثها ذات نفسه ويشكو إليها ما يجد من فشل فى الحب وما يلقاه من مماكسات الأقدار وسوء معاملة الناشرين

وأخيراً ، رثى لحاله صديق له من أصحاب المكتبات ، فأخذ على عاتقه نشر مؤلفاته . و. د

ذلك الحين بدأ « أونريه دى بلزاك » يصعد سلم الشهرة والمجد الأدبى فى سرعة فائقة، واشتد الاقبال على مؤلفاته . وقد بلغ عددها حوالى المائة خلال السنين العشر التى عاشها بعد ذلك حتى توفى يوم ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٥٠ غير متجاوز إحدى وخمسين سنة

ومنذ سنتين احتفلت فرنسا بمرور ١٠٠ سنة على وفاة بلزاك . وأجمع النقاد الفنيون فى العالم كله على أن إنتاجه الفكرى الغزير خليق به أن يسلكه فى عداد عباقرة المفكرين والكتاب العالميين

وما زالت المسارح فى فرنسا وغيرها تتسابق الى إخراج مسرحياته الشعرية والنثرية ، كما أن كتبه ورواياته العديدة المفيدة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية وطبع كل منها عشرات المرات . ويؤخذ من إحصاء رسمى قامت به الحكومة الفرنسية أن مؤلفات بلزاك ظلت تعد أوسع المؤلفات الفرنسية انتشاراً حتى قبيل الحرب العالمية الأخيرة

ومن بين رواياته الرائعة الأخرى : « المهزلة البشرية » و « الحياة العائلية » و « الحياة الباريسية » و « الحياة العسكرية » و « البائع المتجول » و « المحرم النبيل » « وبدء الحياة »

خان فوكير

مدام فوكير امرأة عجوز تدير فى باريس خاناً متواضعاً منذ أربعين سنة ، فى شارع هادىء يقع بين الحي اللاتيني وحى سان مارسيل . وفى هذا الخان يقيم أشتات من الخلق ، بين ذكور وإناث ، وشيب وشباب ، ولكنه ظل طيلة هذه الأعوام بمنجاة من قالة السوء ، فهو خان طيب السمعة محترم كل الاحترام معروف بالصيانة والاحتشام ، وإن كان بعيداً بمستواه المادى عن ترف الحياة وأبهة المظهر

هذا من حيث المبدأ ، أما من حيث الواقع ، فقد سلفت من الأعوام ثلاثون سنة لم يقم بالخان فيها شاب أو شابة يصلح موضوعاً لقالة أو مظنة سوء ، إلا أن تكون أسرته من رقة الحال بحيث لا تتيح له من المعاش ما يربأ به عن هذا الخان الرقيق الحال

والدار التى يشغلها الخان مملوكة لمدام فوكير ، وتقوم فى نهاية شارع « القديسة جنفييف الجديدة » حيث يهبط مستواه ليلتقى بشارع آخر هبوطاً مفاجئاً يجعل صعود الخيل وهبوطها أمراً نادراً . الأمر الذى يضفى على البقعة هدوءاً شاملا قابضاً للصدور ، فلو عبر بها امرؤ خلى القلب اتفاقا لوجد لهذه الكآبة صدى فى نفسه كذلك الصدى الملازم لصدور أهلها المقيمين بها على الدوام . فناهيك بمكان يعد فيه مرور عربة حدثاً يذكر ويروى ، وتبدو فيه الجدران الكالحة مربدة الوجه كأنها السجون . فهذا الحى الصغير الخامل لا ينازعه فى باريس حى آخر فى صفات الكآبة والملل وركود الحياة

ويقوم بناء الخان بأدواره الثلاثة وراء حديقة صغيرة تفصله عن الطريق العام . ونوافذه لها مصاريع خشبية ذات ثقوب كخلايا النحل فيما خلا الطابق الأرضى فنوافذه مزودة بقضبان متقاطعة من الحديد . وخلف البناء فناء صغير ترتع فيه فى ألفة عجيبة صنوف الخنازير والدجاج والأرانب . وفى مؤخرته مخزن لخشب الحريق

والطابق الأرضى يتكون من مدخل تضيؤه نافذتان تطلان على الشارع يؤدى الى قاعة المائدة التى يفصلها عن المطبخ تجويف السلم الخشبى . والواقع أن المدخل يقوم مقام قاعة الجلوس وهو مكان لا يضارعه فى كآبته مكان آخر من حيث الشكل والضوء والأثاث

أما قاعة المائدة فأثاثها عتيق وأدواتها ناصلة الطلاء وخزفها من أخس الأنواع . ولو أننا تحرينا الدقة فى بيان مقدار بلى الأثاث لحملنا هذا الوصف على إطالة لا يتيسر الخلاص منها الى لباب قصتنا

وتأخذ هذه القاعة أبهتها ــ النسبية طبعاً ــ حين تؤذن الساعة السابعة صباحا بظهور « هر » لمدام فوكير قافزاً هنا وهناك يلعق بلسانه اللبن من الفنجان المعد لهذا النزيل أو ذاك . ثم لا تلبث الأرملة فوكير أن تشرق بطلعتها وعلى رأسها طاقيتها المصنوعة من التل ، تلك الطاقية التى تعلو طاقية أخرى ليست من التل ولكن من الشعر المستعار ، وهى تخطر فى القاعة بجررة خفها العتيق ، ويتقدمها أنف كمنقار الببغاء يتوسط وجها أكل عليه الدهر ولكنه لا زال سمينا متناسبا فى ذلك مع جسمها المكتنز ، وشخصها على الجملة يحكى فى صورة حية هذه القاعة التى ينم كل ما فيها على البلى والأفول . فلا نعدو الحق اذا قلنا إن مدام فوكير تمثل الخان والخانُ يمثلها أصدق التمثيل ، فقميصها الذى يتدلى الى ما تحت ثوبها ، وثوبها الذى نال منه القدم بشكل واضح حتى تغير لونه ، صورة صادقة تلخص للناظر قاعة الجلوس وقاعة المائدة بما فيهما من تنافر

ويقال مع هذا ــ والعهدة فى هذا القول على النزلاء ــ إنها امرأة طيبة السريرة رقيقة القلب ، ولعلهم يرثون لها ويظنون بها الاملاق لأنهم لا يسمعون منها إلا شكوى الفاقة فيظنون حالها كحالهم

وما من أحد يدرى من كان زوجها المسيو فوكير . فهى لا تتحدث أبداً عن المرحوم . وانما تكتفى إذا سئلت كيف أضاع ثروته بأن تقول إنه فقدها فى نوازل الأيام . ثم تثنى بوصف قسوته عليها قسوة جففت دموعها ولم تترك لها فضلة من الشعور بالألم حتى تتأفف من عيشها النكد الذى لا مورد له إلا هذا الخان الكثير النفقة القليل الموارد

ومتى سمعت الخادم السمينة « سلفى » التى تقوم بأود المطبخ وقع أقدام سيدتها ، سارعت الى تقديم الافطار للنزلاء . وعددهم وقت حوادث هذه القصة سنة ١٨١٩ سبعة

وكان الطابق الأول يضم جناحين تشغل مدام فوكير أقلهما حظا من أسباب الراحة وتشغل الآخر مدام كوتير وربيبتها الشابة فيكتورين تايفير وتدفعان معا ١٨٠٠ فرنك سنويا

أما الطابق الثانى فيشغله موظف شيخ يدعى بوايريه وعملاق فى الأربعين يصبغ سوالفه ويزعم نفسه تاجراً واسمه فوتران

أما الطابق الثالث ففيه أربع حجرات مؤجرة منهما اثنتان ، وتشغل إحداهما عانس هى الآنسة ميشونون ، ويشغل الأخرى شيخ طيب القلب ينادى باسم « الأب جوريو » !

والحجرتان الأخريان تؤجران للطارئين الذين لا يستطيعون دفع أكثر من خمسة وأربعين فرنكا فى الشهر نظير النوم والطعام . ويشغل إحدى هاتين الغرفتين فى الوقت الحاضر شاب من أبناء الريف من قرية من أعمال مقاطعة انجوليم أتى الى باريس لدراسة القانون وهو سليل أسرة نبيلة أخنى عليها الدهر ولكنها تتحمل ألوانا قاسية من الحرمان فى سبيل توفير مائة فرنك شهريا تدفعها الى يد هذا الشاب ليدبر بها أمر مقامه وتعليمه وغذائه وكسائه . وذلكم هو « اوجين دى رستنياك »

وفوق الدور الثالث حجرة الغسيل وخزانتان صغيرتان هما مخدعا الخادم « كريستوف » والطباخة « سيلفي »

فكان مجموع نزلاء الفندق المقيمين فيه سبعة ، يضاف اليهم « منتسبون » من الخارج يتناولون وجبة العشاء فقط وعددهم عشرة . لهذا تحفل قاعة الطعام فى المساء بعدد كبير يتجاذبون أطراف الحديث فتكون لأصواتهم جلبة فى تلك القاعة المعتمة . أما فى الصباح فلا يتجاوز عدد الطاعمين ثمانية بما فيهم ربة الخان مدام فوكير فتبدو القاعة كأنها حجرة طعام عائلية تقوم فيها مدام فوكير بدور الأم . فالنزلاء يجلسون الى المائدة بملابس المنزل وفى أرجلهم النعال الخفيفة ، ويتبادلون التعليقات وأطراف الحديث بصورة ودية لا كلفة فيها

ولكن أزياء هؤلاء النزلاء لا تنافر بينها وبين الخان وأثاثه الزرى . فالرجال عليهم حلل الربدنجوت التى خف لونها ورث أديمها حتى ما تدرى لرقتها لونا معينا أو صنفا من أصناف النسيج معروفا بذاته على وجه التحديد . وأحذية الخروج ليست أحسن حالا من الحلل فهى بحالة لبس لها مثيل فى غير ذلك الحى الفقير من باريس إلا مطروحة على قارعة الطريق

وثياب النساء ليست خيراً من ثياب الرجال بكثير ، فهى تشكو كثرة ما قلبتها الأيدى لتبديل صورتها أو إعادة صبغها بعد أن حال لونها مرات ومرات

وإذا كانت هذه هى الثياب ، فما كانت الأجساد التى تكتسى بها أحسن حالا : فهى أجساد ممروقة ترك عليها صراع الزمن آثاره واضحة من هزال أو تغضن . فكل واحد من هؤلاء يحكى بشخصه مأساة حية بلغت ذروتها وتمت فصولها ! ومى فى طريقها إلى الذروة والتمام . مآس ليست كتلك التى تعرض فى ملاعب التمثيل ، فان سوء طالعها حرمها لذة الصناعة وتزويق التأليف المحبوك والاخراج المنمق . إنها مآس كئيبة تعيش حاسرة الرأس لايلتفت اليها أحد

ان نزلاء خان فوكير هم أليق الناس وأولاهم بالحياة فى ذلك الخان لأنهم مثله من نفايات الحياة فمن هم هؤلاء النزلاء على التحقيق ؟

نزلاء الخان

هـــذه الآنسة « ميشونو » التى تقدمت بها السن حتى نالت من نور عينيهـــا ، فهى تجعل فوقهما وقاء من نسيج أخضر اللون يمسكه برأسها سلك من الحديد ، فلو رآها ملك من ملائكة الرحمة لولى منها فراراً ولامتلأ منها رعباً . أما شملتها ذات الشراريب الطويلة فيخيل اليك أنها تغطى كتفى هيكل عظمى أو مومياء ، لجسمها من النحول وبروز العظام بحيث يبدو للناظر بقايا جثة بشرية عدا عليها الموت من سنوات . وإنها لحيرة للعقول أن تدرك كنه ذلك السائل الخفى الخفى الذى أتى على علامات الأنوثة فيها فليس فى جسدها استدارة واحدة من تلك الاستدارات التى تتميز بها أجساد النساء ، وإنه ليبدو أنها كانت يوما ما ذات صبا وجمال فأين آثار هذا الجمال إذا كان الصبا قد ذبل وزال ؟.. هل أتى عليه البخل أو الطمع ؟.. وأى النساء هى ؟.. هل كانت حياتها قصة حب قوى ؟.. أو هى لم تعرف الحب ؟.. وهل كانت تتعيش من الاتجار بالثياب المستعملة والنفايات البالية ، أو هى مومس لم تعد لها على الزمن سوق نافقة ؟...

من يدرى ؟.. كل الذى تراه العين منها هو نظرتها الباردة الجامدة التى تسرى لها فى العروق رعدة ، ومعارف وجهها التى يتوجس الانسان منها فتأخذه نفرة غامضة . أما صوتها فله نبرة حادة عالية كنقيق الضفدع فى بركة غاض منها الماء . وهى تزعم أنها كانت ممرضة لشيخ ثرى أوصى لها بمعاش سنوى قدره ألف فرنك ولـكن ورثته يماطلونها دائماً ولا تجد فى طاقتها ماتدفع به عن حقها أمام هؤلاء الأقوياء

وندع الآنسة ميشونو لننظر فى أمر السيد « بواريه » فمن هو السيد بواريه ؟ انه ضرب من ضروب المخلوقات الآلية . انه انسان آلى يتحرك كما تتحرك الأشباح ، ففيه هزال الأشباح وصمتها وكآبتها ، وفوق رأسه قبعة عتيقة وفى يده عصا لها رأس مكورة من العاج المصفر يقبض عليها بأطراف أصابعه وذيول سترته الطويلة الواسعة تعبث بها الرياح وساقاه الهزيلتان تتخبطان فى مشية كمشية السكران ، فاذا تأملنا صدره ألفينا قميصاً أبيض قذراً فوقه صدار أبيض يبارى القميص فى القذارة وتعلوهما جميعاً عقدة تلتف حول عنق هو أشبه الأشياء بعنق الديك الرومى ! أما سرواله فهو ضيق ولـكنه رغم ضيقه يبدو مطويا على هباء وفضاء ! فمن يراه لايخطىء أن يتساءل من أى سلالة غريبة هو وأى عمل مرهق أضناه إلى هذا الحد وأى عاطفة مشبوبة أكلت جسمه حتى صار إلى هذا النحول الذى لو جرت به ريشة رسام كاريكاتير لـكان من المبالغة التى تحمل على

محل التهويل ... ولا يمكن أن يتصور الانسان لهذا المخلوق عملا اليق به من وظيفة فى وزارة العدل يختص فيها بحسابات آلات الاعدام والعاملين عليها وما يلزم لها من حبال وشحذ وما إلى ذلك من أقنعة سود وسلال تجمع فيها الرؤوس المقطوعة . أم لعله يعمل جابياً للمكوس على باب المذبح العام لماشية باريس ...

ومهما يكن من أمر مهنته الحقيقية فالرجل يبدو لأول وهلة بغلا استنفدت قواه كثرة العمل فى خدمة الدولة . فهو نفاية من نفايات الحياة الاجتماعية . انه عامل من الذين يسخرون كمخلب القط لاستخراج الكستناء من النار ، ولكنهم يعيشون ويموتون وهم يجهلون مجرد أسماء أولئك الذين يحرقون لهم أصابعهم لكى يخرجوا لهم الكستناء . وباريس العظيمة تحفل بهؤلاء من دون أن تدرى عن آلامهم شيئاً . ولا غرو ، فباريس بحر خضم ليس لمده آخر ولا لغوره قرار . وفى هذا اليم المترامى تيارات خفية ومخلوقات لا حصر لها ، فمهما فتشت فيه لا شك واجد جديداً يروعك بتفاسته أو بقبحه وبشاعته: ففيه اللآلىء والأصداف وفيه الأزهار والأخطبوط وفيه القيران التى لم يحلم بها بشر كما أن فيه حطام آلاف السفائن التى اختصرت لها الأنواء رحلتها إلى مرفأ بعيد

وخان فوكير بما فيه من الآنسة مونوشو والسيد بواريه كهف من كهوف بحر باريس المجهولة يحفل بمخلوقات مما تعيش فى الأعماق البعيدة ليس لها مثيل فى البشاعة وغرابة التكوين

□

ولكن فى هذا الكهف الفاتر وبين هذه المخلوقات المنفرة تبرز شخصيتان بينهما وبين سائر نزلاء الخان تباين كبير

وأول هذين ، أو أولاهما على الأصح ، هى « فيكتورين تايفار » وانها لفتاة فى مقتبل العمر على محياها ذلك الشحوب الذى يتميز به من أصابتهم علة الصدر ، وتفيض من عينيها نظرة حزينة تنبى عن أسى مكنون وهم مقيم ، وفى قامتهـا تلك الرقة المرضية التى تدل على تكوين ضعيف لا قبل له بمواجهة أنواء الحياة . وهى بهذه الصفات تشارك فى الجو العام الذى ترك طابعه فوق كل ما يتصل بخان فوكير ونزلائه . ولكن ما فى وجههـا وصوتها من صبا وفى حركاتها من نشاط وحيوية عصبية كان ينأى بها عن ذلك الجو ويفردها بميزة خاصة بها

ولكن هذا الصبا إذا دقق المرء النظر فيه وجده أدعى إلى الأسى من الشيخوخة الفانية فقد ذوت أوراقها تحت ضربات الجفاف العاطفى والأبوى حتى صارت كالنبات الذى نقل من تربة إلى تربة فأعوزه الجو الصالح للحياة والنماء . بيد أن الناظر فى عينيها الرماديتين اللتين تضربان إلى السواد يرى فيهما تلك الوداعة الناجمة عن ذلك التدين الشديد وذلك الاذعان الذى يورثه الايمان من يعتصمون به حين تحز بهم مشكلات الأمور . وقد أفادتها هذه الرقة حتى لقد بدت بالقياس إلى المحيط الذى تعيش فيه كالزهرة الجميلة فى خربة مملوءة بالعفن . ولولا شحوبها الدائم

لكانت جميلة اطلاقا . ذلك أن السعادة تضفى على المرأة جمالا سلبتها إياه مقاييس جسمها أو معالم خلقتها ، لأن جمال السعادة هو الوضاءة الشاعرية وهالة الأحلام التى تجعل من المرأة شمعة تطيف بها فراشات القلوب . فلو أن فرحة الرقص فى ثوب جميل صبغت وجنتها الصفراء بحمرة الحماسة والسرور ، ولو أن كيوبيد أضاء بشعله السحرى ومضات الحب فى عينيها، إذن لكان فى مقدور فيكتورين تايفير أن تبارى أملح الفتيات وتنازعها قصب السبق فى مضمار الجمال . ولكن المسكينة تفتقر إلى أهم مقومات الجمال فى المرأة وأهم مزكيات حسنها إلا وهو الثوب المليح ، والحذاء الرشيق ، وخطابات الغرام الوردية اللون المعطرة الأنفاس

فمن هى ؟.. إن والدها لديه من الأسباب ما يحمله على عدم الاعتراف بها . وهو ثرى واسع الثراء ، ولكن قلبه مثل ذهبه برودة وجمودا . وهو يختص شقيقها بالرعاية ، ويشاركه ماله ، وهو مزمع أن يورثه إياه كله أما هى فلا يريد أن يراها ولا أن يسمع عنها ، ولا يخرج لها من ماله الضخم الا عن خمسين فرنكا فى الشهر

ولما كانت والدتها من قريبات مدام كوتير فقد تبنتها هذه السيدة بعد وفاة والدتها كسيرة القلب بما لقيت من عنت زوجها وسوء معاملته . ولكن السيدة الطيبة القلب لا تملك الا معاشاً ضئيلا عن زوجها ، فاذا انتقلت إلى جوار ربها فمنذا الذى يرعى تلك الفتاة التى لا نصير لها فى هذا العالم الذى يناصبها العداء ؟

والسيدة الرحيمة تصحب الفتاة إلى الكنيسة صباح كل أحد، وتأخذها الى كرسي الاعتراف مرة كل أسبوعين ، لكى تظل على اتصال دائم بمنبع العزاء المستمد من ممارسة طقوس الدين وتقوى الله . فالإيمان بعالم آخر هو الموئل الوحيد لأولئك الذين خاب أملهم فى الحياة الدنيا . وقد أفلحت هذه الخطة فى اضفاء الرقة والوداعة على الصبية اليتيمة، بحيث لم تكره والدها برغم ما أتاه فى حقها ولا زال لديها أمل فى استمالته . فهى تذهب مرة فى كل سنة لتلقى ما رصده لها من مال وتحاول عبثاً أن تقابله لأنه يقفل دونها بابه . وليس أخوها خيراً من أبيها . ومع ذلك فهى تذكرهما فى صلاتها اليومية وتدعو الله أن يرقق قلبيهما من غير إدانة لهما أو ملام

ولم تكن مدام كوتير ومدام فوكير تتحرجان فى صب اللعنات على الولد والأخ ، فان جرمهما كان يبدو للسيدتين أفظع من أى وصف ورد فى القاموس ، فاذا سمعتهما فيكتورين أجابتهما بعبارات رقيقة لتنهاهما عن هذا الاقذاع ، فتقع تلك العبارات على السمع كنوح الحمام الذى مهما صدر عن ألم شديد فهو لايخلو من اللطف والمحبة ولا يمكن أن يصدر عن حقد أو بغضاء

هذه فيكتورين تايفير . فمن هو الشخص الآخر الذى يشاركها فى المباينة لسائر نزلاء الخان؟

انه ايجين دى رستنياك . الفتى الريفى الأبيض الوجه الأسود الشعر الأزرق العينين . وإن سيماه وآداب سلوكه انبئ بوضوح عن أصل عريق وتربية حسنة . وهو وان اجتهد فى الاقتصاد فى نفقة ملابسه إلا أنه يحسن أن يبدو فى بزة حسنة وأناقة لابأس بها إذا حضرت المناسبة التى

تستأهل هذه العناية . ولكنه فى الأحوال العادية يرتدى حلة قديمة وينتعل حذاء بليت جدته وخصف نعله

=

وإلى جوار هذا الشاب وتلك الشابة يبرز شخص آخر ليس من طراز بقية النزلاء . انه « فوتران » . وهو رجل هائل الجثة فى الأربعين من عمره يصبغ سوالفه ويبدو عليه المرح الشديد والاقبال على الحياة . وله كتفان عريضتان وصدر واسع وذراعان فيهما عضل كبير وتنتهيان براحتين كبيرتين يعلو أصابعهما شعر أحمر كثيف . وما يرتسم على وجهه الضخم من غضون مبكرة انما يدل على خشونة تنفيها عنه معاملته الهينة لسائر الناس فهو لطيف المعشر خدوم لا يسمع بشىء فسد إلا بادر إلى اصلاحه بيديه فهو على ما يلوح ذو خبرة بجميع الحرف من الملاحة إلى أقاليم الريف إلى ادارة الأعمال وشئون الاقتصاد ودقائق القانون وكبار البيوتات ولوائح السجون ! . وإذا ضاقت بأحد معارفه الأزمات بادر إلى معونته وكم من مرة أقرض مدام فوكير ونزلاءها مبالغ لا بأس بها . ولكن ما من أحد كان يمطله حقه أو يتلكأ فى سداد القرض لأن له نظرة مخيفة إذا جد الجد ، فله عينان ثاقبتان تنفذان فى حنايا الصدور وتخترقان الحجب وتكتشفان ما ينطوى عليه الناس من مشاعر وأفكار

وكان من عادته أن يخرج بعد الافطار ليعود ساعة العشاء ثم يختفى طول السهرة ليعود حول منتصف الليل فيدخل بمفتاح خاص أتحفته به مدام فوكير دون غيره من النزلاء . فهو الوحيد من بينهم الذى ينبسط معها ويداعبها ويناديها يا أماه ويحيط خصرها الضخم بذراعه . وكانت العجوز تظن هذا شيئاً يسيراً على أى انسان ولكن فوتران دون سواه هو الذى يفكر فيه . مع أن الواقع أن فوتران العملاق وحده هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل لطول ذراعيه. وهو ينفرد بميزة أخرى هى بذله خمسة عشر فرنكا كل شهر نظير القهوة وكأس الكونياك اللتين يتناولهما يومياً بعد العشاء . وفى بعض الأحيان كان يطلق للسانه العنان فيكشف عن جانب الأوضاع المقلوبة فى الدولة والمجتمع فى أسلوب ساخر لاذع ينبي عن حقد لديه دفين على الدولة وعن سر لديه مكنون يحز فى نفسه وإن كان يطويه ويحرص على إخفائه

ولما كان الجمال والقوة هما أشد ما يجتذب التفات المرأة ، فلا عجب أن نجد فيكتورين تايفير تقسم نظراتها المختلسة وخواطرها الخفية بين هذا الكهل العملاق وذلك الشاب الريفى النبيل . فهى مشغولة بالقوة والجمال ولكن لم يكن فيها ما يلفت صاحب القوة أو صاحب الجمال ، مع أن مفاجآت القدر كفيلة أن تبدل حالها بين عشية وضحاها فتجعل منها قنيصة ترنو اليها الأبصار طمعاً فى ثرائها المريض . ولكن القاعدة الثابتة ان كل نزيل كان لا يعير قصة سائر النزلاء نفقة كاملة ، لأنه لا يهمه إلا مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية

مجموعة من المثقلين بأعباء الحياة ونوازلها ، لم يكن بينهم شخص قرير العين بوجوده في ذلك الخان إلا صاحبته مدام فوكير ، فهي ترى فيه ملكيتها الخاصة ، ولا تبصر فيه عيباً ، كأنها الأم التي ترى وليدها أوسم خلق الله وإن كان اتصافه بالجمال ضربا من ضروب المحال

وان أتعس المنازل وأحفل المجتمعات بالأسى والشقاء لاتعدم فرداً منها يكون أضحوكة لسائر الجماعة . ولم يكن خان فوكير بالشاذ في هـذه القاعدة . وكان أضحوكته المستمرة المستديمة هو ذلك الشيخ الهادىء الفاني الذي ألف الجميع أن يدعوه « الأب جوريو »

شيخ فى السبعين

والاب جوريو شيخ ناهز القسمة والستين من عمره ، اعتكف فى خان فوكير منذ سبع سنين أى منذ سنة ١٨١٣ بعد أن صفى أعماله واعتزل التجارة . وقد شغل أول ما شغل ذلك الجناح الذى تشغله الآن مدام كوتير وربيبتها فيكتورين ، وكان يدفع لصاحبة الخان مائة فرنك عن كل شهر ، فقد كان يبدو فى مظهر الرجل الذى لا يدقق فيما ينفقه من مال لأنه تعود البسط فى النفقة ولأن راحته الشخصية أعز عليه من درهم يدخره أو درهمين . وقد رأت فيه مدام فوكير فى ذلك الوقت رجلا ساذجاً يسهل استغلال طيبته ـ والطيبة هنا معنى من معانى الغفلة

وقد حمل جوريو معه حين نزل بالخان عدداً وفيراً من الملابس الثمينة من مختلف الأنواع تظهره بمظهر الرجل الميسور الذى لا يضن على نفسه بشىء من متاع الحياة ومناعمها منى أغلق حانوته . وقد راق مدام فوكير فى هذا الجهاز الفاخر ثمانية عشر قيصاً من الحرير الرقيق تزينها حين يلبسها تلك الدبابيس الماسية الكبيرة الحجم . وكان الأب جوريو فى ذلك العهد لا يلبس الصدار الأبيض إلا مرة واحدة يبدو به مختالا تتراقص فوقه سلسلة غليظة من الذهب فوق بطن مكورة تتقدمه فى مهابة وهو ينقل خطوه بخيلاء . وفى جيب الصدار علبة نشوق من الذهب الخالص بداخلها خصلة من الشعر تشى بمغامرات عاطفية تعلق بمظهره الوقور . فإذا ألمحت مدام فوكير في مواجهته الى أنه رجل ذو صبوات ابتسم ابتسامة ماكرة تنم عن شعوره بالزهو لهذا الاطواء الذى يرضى كبرياءه

أما صوانات جناحه فقد حفلت بتلك التحف الفضية النادرة التى كانت يوماً زينة بيته الكبير قبل أن تموت زوجته وتتزوج بنتاه ويصبح البيت غير ذى موضوع . وهى أوان ثمينة كانت صاحبة الخان ترمقها بعينين تقدحان بالشرر حين تساعده على ترتيبها وتنظيفها وكان يعتز بها لأنها التذكار الأخير لسعادته المنزلية الغابرة . وقد احتضن ذات يوم أمامها طبقاً ووعاء له غطاء تعلوه حمامتان تتبادلان القبلات ، صنعا من الفضة المذهبة وقال لها بتأثر بالغ :

— هذه هى الهدية الأولى التى قدمتها لى زوجتى فى عيد زواجنا الأول . غفر الله لها ، فما كان أطيب قلبها ، وكم من أشياء حرمت نفسها منها لكى تدخر ثمنها ، وهى بعد فى عهد عذرتها . فلا تعجبي يا سيدتى إذا قلت لك إننى أفضل أن أحفر الأرض بأظافرى التماساً للقوت على أن أفرط فى هذه الهدية . وإنى لأحمد الله أن أتاح لى احتساء قهوتى كل صباح فى هذا الوعاء الأنيق الذى يصلنى بالماضى السعيد

وكان جوريو إذ ذاك بادى الصحة متين التركيب رغم تقدمه فى السن ، يقبل على الطعام ويكثر من التدخين بطريقة تباعد بينه وبين الكزازة والتقتير وتزيد صفة اليسر التصاقاً به حتى باتت مدام فوكير تتقلب على فراش السهد طامعة أن تخلع عنها اسم فوكير لتولد وهى فى سنها هذه باسم جوريو

— آه ما أحلى أن أتزوج وأبيع الخان وأغدو سيدة معتبرة فى الحى ، أتسقط أخبار المعوزين ، وأسدى يد المعونة الى المحتاجين ، وأقيم المآدب الأنيقة يوم الأحد ، وأذهب الى ملعب التمثيل على هواى فى مقصورة خاصة دون أن أنتظر التذاكر المجانية التى يجود بها أحياناً نزلاء الخان

ولم يكن أحد يعلم أنها تدخر أربعين ألف فرنك جمعتها درهماً بدرهم وفلساً بفلس ولكنها لا تغفل هذه المزية حين تحلم بهذا الزواج ، فترى نفسها أهلا له بفضل هذه البائنة الضخمة ، ثم تتحسس راضية مواضع جسمها المكتنز كأنما تستوثق من آيات الاطراء التى تزفها اليها طباختها البدينة « سيلفى »

وقد ظلت مدام فوكير طيلة الأشهر الثلاثة الأولى تستخدم الحلاق الذى يأتى خصيصاً للأب جوريو فى تزيين شعرها ، بل اجتهدت فى رفع مستوى نزلائها مرددة على الدوام أن خانها مؤسسة محترمة لا ينزل بها إلا الناس المعتبرون وأفاضل القوم من الجنسين . فاذا تقدم اليها أحد برغبة الاقامة عندها بدأت بالتدليل على قيمة منزلها بأن السيد جوريو المحترم وهو من كبار التجار ورجال الأعمال السابقين قد فضله بخبرته الواسعة على جميع ما عداه من خانات عاصمة النور

وقد أجدى هذا النهج الجديد عليها فنزلت عندها الكونتس دى لامبوميتيل ، وهى عقيلة فى السادسة والثلاثين من عمرها جاءت الى باريس لاتمام تسوية المعاش المستحق لها بصفتها أرملة جنرال مات فى « ميادين » القتال . وقد قدرت مدام فوكير هذا الشرف الذى أتيح لها حق قدره فبذلت من جيبها تكاليف مائدة محترمة وخدمة ممتازة ستة أشهر طوال ليكون المكان على قدر المقام ، متفانية فى إظهار عرفانها لجميل تلك السيدة العالية القدر التى تتلطف فتدعوها « صديقتى العزيزة » والتى تفضلت فقدمتها الى صديقتين جاءتا لزيارتها إحداهما بارونة والأخرى زوجة كولونيل . فلما ارتفعت الكلفة أفضت مدام فوكير بمكنون رغبتها الى الكونتس ، فقالت لها الكونتس :

— إنه رجل محترم وفى صحة جيدة ولا زالت فيه بقية صالحة تقر بها المرأة عيناً . ولكنى أرى أن تغيرى من زينتك لكى تكونى أرعى لنظره وأندى على قلبه

وبعد أخذ ورد صحبت الكونتس مدام فوكير فانتقت لها قبعة ذات ريش ووشاحاً جميلا وثوباً من آخر طراز . فلما أخذت مدام فوكير زخرفها وازينت راقت فى عين نفسها وتوجهت

إلى الكونتس ترجوها أن تتوسط بينها وبين جوريو ، فقبلت عن طيب خاطر

وخلت الكونتس بجوريو خلوة هدفت منها إلى كسبها لنفسها وأغوائه لحسابها . فلما رأت منه صدوداً جرح كبرياءها خرجت على مدام فوكير بوجه يحمل أمارات السخط والتأفف !

— لا جدوى من مثل هذا الرجل فهو نفور شحيح له على أمواله علل ، وفيه فداء، وتنطع ، ولن تأتيك منه إلا الهموم والمتاعب

ويبدو أن ما جرى بين جوريو والكونتس كان من الحرج بحيث لم تطق البقاء بعد ذلك معه تحت سقف واحد ، فغادرت الخان فى اليوم التالى ، ولكنها نسيت قبل أن تغادره أن تدفع أجر إقامتها ستة أشهر ، تاركة وراءها ملابس عتيقة لا تزيد قيمتها على خمسة فرنكات!

وشكت مدام فوكير وبكت ولكنها عبثاً بحثت عمن يدلها فى طول باريس وعرضها على كونتس تحمل هذا الاسم مات عنها زوجها الجنرال صريعاً فى «ميادين» الشرف ...

ولم تكن مدام فوكير سوى امرأة ضيقة الأفق لا تحسن تقصى الأسباب فيما يهم لها من أمور ولا تربط بين العلل والنتائج ، فكل اهتمامها منصب على الحوادث ذاتها دون نظر الى مصادرها ومسبباتها . ولديها من حب الذات حباً أعمى يتميز به الجهلاء ما يجعلها تحمل الاخرين وزر ما تقع فيه من إخطاء . فغير غريب إذن حين منيت بهذه الخسارة أن نراها لا تعزوها إلى غفلتها وقصر نظرها بعواقب الأمور ، بل تحملها على كاهل التاجر المتقاعد الطيب القلب جوريو فحقدت عليه حقداً شديداً ولا سيما لأن آمالها فيه قد خابت ، وقد كانت لعمر الحق آمالا كباراً هونت عليها أن تنفق ما أنفقت فى زينتها وأناقة مائدتها ومائدته تلك النفقات التى ذهبت أدراج الرياح. بل إنها مضت فى حقدها عليه وكراهيتها له شوطاً أبعد مما ذهبت إليه فى حبها السابق الخائب . فحقدها لم يكن مبعثه فشل حبها بل إخفاق آمالها النفعية . ولأنها امرأة نفعية فقد تعين عليها أن تكتم عواطفها لأن الرجل نزيلها وهى لا تحب أن تضحى بما تجنيه من ورائه . ولكن صغار النفوس لا تعدم أبداً وسيلة للاساءة إلى من يضمرون لهم الكيد، فبدأت بالغاء النوافل المرفهة التى كانت قد أضافتها الى المائدة من أنواع المشهيات . ولكن الأب جوريو كان رجلا متقشفاً مخشوشنا لا يأبه للمتاعب فى طعامه . فحسبه من زاد خير زاد طبق من الحساء وشىء من اللحم المسلوق وجانب من الخضر . لهذا تعذر على مدام فوكير أن تضايقه من جهة بطنه . فعمدت إلى التنديد به من ورائه والتغامز والتهامس عليه والايحاء إلى سائر نزلائها أن يتخذوه موضوعاً لفكاهاتهم وسخريتهم . وقد وجدوا فى هذا ما يسليهم فأقبلوا عليه عن طيب خاطر

وبعد انقضاء العام الأول تغيرت عادات جوريو قليلا ، فبعد إن كان يتغدى أو يتعشى فى الخارج مرتين فى الأسبوع أصبح لا يفعل ذلك إلا مرتين فى الشهر فزادت فرص تحملها لوجوده معها على المائدة فلم تحمل هذا المسلك على قلة إيراده عن ذى قبل بل خطر لها أنه إنما تعمدهما ليكيد لها ويضايقها!

حتى إذا انصرم العام الثانى طلب إليهـا أن ينقل إقامته إلى الطابق الثانى لكى يهبط بأجر اقامته من مائة فرنك إلى خمسة وسبعين لأنه مضطر الى الاقلال من نفقاته ، فطالبته المرأة بأجر العام مقدماً فقبل الرجل هذا الشرط

ومنذ ذلك اليوم تغير اسمه لديها من السيد جوريو إلى الأب جوريو

وكان فى مقدور أى انسان يلحظ هذا الهبوط فى مستوى معيشته ، ولكن الحقيقة لم تكن فى مثل هذه السهولة تقصياً ووضوحاً . فالأب جوريو رجل كتوم لا يسهل استكناه أسراره . لهذا تضاربت الآراء حول أسباب سوء حاله بعد يسره الأول . فهذا فوتران العملاق الذى جاء الى الخان فى هذه الفترة يزعم أن الأب جوريو يتردد على مصفق العقود ويدخل فى مضاربات طمعاً فى استرداد بعض ما فقده من الخسائر التى أدت به الى الافلاس . وزعم غيره من النزلاء أنه مبتلى بداء القمار . وزعم ثالث أنه عين من عيون البوليس السرى . وتوهم غيرهم أنه بخيل يقرض المضطرين بربا فاحش . وهو على أى فرض من هذه الفروض ليست له فى نظرهم صورة مشرفة ، وإنما هو مجموعة من الرذائل والعار والضعف . ولكنهم كانوا يقبلونه على علاته لانه مسالم ولأنه هدف صالح لنكاتهم إذا ضاقت صدورهم بهموم الحياة

بيد أن أجدر صورة خلعها أحد للأب جوريو بالتنويه هى التى توهمتها مدام فوكير . فهو فى زعمها ــ بل فى يقينها ــ رجل ذو ثروة وقوة ولكنه اباحى ماجن له نزوات تتسم بالشذوذ . ولم تكن تعوزها الأسباب التى تبنى عليها هذا الاعتقاد :

فقبل رحيل الكونتس ببضعة أشهر نما الى سمع مدام فوكير فى بكرة الصباح وهى بعدُ فى فراشها حفيف ثوب حريرى يجرر أذياله فوق درج الدار ووقع خطى امرأة شابة تتسلل الى غرفة جوريو التى كان بابها مواربا عن عمد ولا شك . وما لبثت الطباخة السمينة « سيلفى » أن دخلت عليها بالنبأ اليقين : فهذه فتاة أبهى من أن تكون شريفة ، عليهـا ثياب كثياب الإلهات الأساطير ، تسلك إلى المطبخ وتسألها عن جناح السيد جوريو ... فعمدت مدام فوكير وطباختها على الأثر الى استراق السمع ، فتسقطتا بضع كلمات من التودد والملاطفة من هذا الجانب وذاك ، فى تلك الزيارة التى دامت بعض الوقت . فلما هبط السيد جوريو لوداع زائرته ، تناولت « سيلفى » سلتها وتصنعت الذهاب إلى السوق لكى تتعقب العاشقين ، وقالت لسيدتها عند عودتها :

ــ لابد أن السيد جوريو على جانب من الثراء عظيم ، حتى يكون فى مقـدوره أن يعول صاحباته فى هذا المستوى .. تصورى ياسيدتى أن عربة من أفخم العربات الخصوصيـة كانت فى انتظارها عند رأس الشارع .. فصعدت اليها

فلما كان الغداء ، قامت مدام فوكير بنفسها فأسدلت من ذاتها نسيجها الستار على النافذة ، لأن الشمس كانت تقع أشعتها على عين جوريو ! ثم قالت له فى مودة ظاهرية :

— لك عند الحسان حظوة ياسيد جوريو . وحتى الشمس تتحرى أن تسقط عليك !.. وإن ذوقك وايم الحق لرائع ، فما كان أبهاها !

فأجابها بزهو خاله النزلاء مموها لتغطية موقفه :

— انها ابنتي ...

وبعد شهر من هـــذه الزيارة حظى بزائرة أخرى بعد الظهر ، بملابس الخروج ، فظنتها الطباخة امرأة أخرى . واستطاع النزلاء هذه المرة أن يتأملوها ، فاذا هي شقراء مليحة رشيقة، أوسم من أن تعد ابنة لمثل جوريو

وبعد بضعة أيام جاءت فتاة أخرى ، طويلة ، جميلة سمراء ، سوداء الشعر نافذة النظرة ، وسألت عن السيد جوريو ، فقالت « سيلفي » :

— وهذه ثالثة . . .

فلما عادت بعد أيام في المساء بملابس السهرة السكبرى، لم تعرفها الطباخة، فقالت مع سيدتها:

— وهذه رابعة ...

وكان جوريو في هذه الفترة لايزال يدفع مائة فرنك شهريا كراء لاقامته بالخان. فكانت مدام فوكير لاترى مايستدعي الغرابة أن يوسع رجل موسر على نفسه ، وأن تكون له أربع عشيقات من الصبايا أو خمس ، وكانت تعجب بلباقته إذ يزعمهن بناته . ولـكنها وجدت في هذه الظاهرة تعليلا يرضيها لانصراف جوريو عنها رغم توددها اليه ، بيد أنها لم تستطع اغضابه ، ولم تتأفف من زيارة صاحباته له في الخان . حتى إذا هبط بالكراء إلى خمسة وسبعين فرنكا نعزتها الغيرة على سمعة الدار ، وواجهته بالتقريع عندما رأت احداهن تهبط من حجرته ، فقال لها الشيخ :

— هذه ابنتي السكبرى

— بنتك ؟ وهل لك ست وثلاثون بنتاً يارجل !

— بل اثنتان فقط

... فلما انتهى العام الثالث ، صعد جوريو طابقاً آخر، فسكن الطابق الثالث ، هابطاً بالكراء إلى خمسة وأربعين فرنكاً في الشهر ، وأقلع عن التدخين ، وقطع راتب الحلاق مستغنياً عن تصفيف شعره وصباغته ، فبدا زرى الهيئة . فلم يعد لدى مدام فوكير شك في أمره : انه شيخ حطمته الرذائل ، ولم تعد في عينيه قدرة على مقاومة آثار فسوقه لولا العقاقير التي يعالجهما بها الطبيب ، وأما لون شعره الحائل الضارب إلى الخضرة فيرجع إلى افراط الشيخ في الشهوات ، وإلى المقويات الـكيميائيه التي يثابر على تعاطيها ليستعين بها على ذلك الافراط

والحق أن هيئة الرجل وحالته النفسية والجسدية كانتا تبرران هذا الاعتقاد . فهو يتحدر من سيء إلى أسوأ . وملابسه تبلى ولا يبدلها ، وماساته السابقة وسلسلته الطويلة اختفت كلها تباعا . وتدهورت صحته تدهوراً فظيعاً ، فبعد أن كان يبدو في الأربعين وهو في الثانية والستين

صار يبدو فى السبعين على أقل تقدير بعد أن ذهبت عنه آخر آثار تلك النضرة التى كان يتميز بها وجهه ، وخبا ضياء عينيه حتى حال لونهما من الزرقة إلى الخضرة الباهتة ، واحمرت جفونه حتى غدا يثير الشفقة إذا لم يثر الاشمئزاز

وذات يوم انتهزت مدام فوكير الفرصة ، وقالت له فى قالب الدعابة :

— أرى بناتك قد انقطعن عن زيارتك هذه الأيام

فانتفض الرجل كمن أصابته طعنة سيف ، وقال بصوت مختلج :

— بل يأتين فى بعض الأحيان

فصاح النزلاء من الطلبة ضاحكين :

— ألا زلت تستطيع رؤيتهن من حين إلى حين ؟ مرحى مرحى أيها الشيخ !

ولكن الشيخ لم يسمع ماقالوا ، لأنه عاد إلى أحلام اليقظة التى يعيش فيها ، فيحسبها من يراه حالة من حالات البلاهة ... فما من أحد كان يصدق أن هؤلاء الفتيات بناته ... بل كانوا جميعاً على رأى مدام فوكير فى أنه لو كانت له بنات على هذا الثراء الذى بدين به فى زياراتهن السابقة له ، لما اضطر إلى البقاء فى هذا الخان على هذا الوجه الزرى ، وبهذه الملابس الخلقة

وكيف كان يمكن التحقق من كنه هذا الشيخ ؟ ان المسنين من النزلاء لايغادرون الخان ولا الحى ، فهم فيه كالمحارات فى أصدافها . والشبان منهم ينسون الخان ومن فيه — بما فيهم جوريو — متى خرجوا إلى أفق باريس الرهيب .. فلم يعن أحد بالسؤال ، ولو سألوا لعرفوا فى يسر أن جوريو كان من تجار الدقيق وصناع الاطرية (الشعيرية) الكبار ، وأنه جمع ثروة طائلة ، وأن له بنتين حقاً من أعلى السيدات فى باريس مكاناً وأعظمهن جاهاً

وعلى هذه الحال ، حلت سنة ١٨١٩ وقد قر فى الأذهان أبعد الأوهام عن الحق فى شأن هذا الشيخ المسكين ، فهو عند الكافة لم تكن له زوجة ولاولد ، وإنما هو عزب حطمته الشهوات وعاقبه الله على الفسق والمجون بسوء الحال والمآل ...

ليلة المرقص

سلخ ايجين دي راستنياك عامه الأول في باريس كما ينتظر من شاب ريفي مثله أطلق له العنان في عاصمة النور ، فالدراسة لا تقتطع من وقته شيئاً كثيراً لأنها في الغالب مداخل ولمع تمهيدية لعلم القانون ، فأمامه متسع من الوقت تتزاحم عليه الشواغل إذا أراد أن يعرف جميع وجوه الحياة في العاصمة فيزور مسارحها وملاهيها ويطوف بمتاحفها ومعاهد الفن فيها ويتعرف الى لغة الأحياء وتقاليد العلية

وهكذا بدأ ايجين بالاعجاب بالعربات الفاخرة التي تترى أمام عينيه في الشانزليزيه ، ولكن الاعجاب — اعجاب المحروم — انتهى الى نتيجته الطبيعية وهي الغبطة والتمني والحسد

فلما عاد بعد هذه السنة الأولى الى قريته كان قد بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، مرحلة التمني والحسد والتعلق بمظاهر الترف والأبهة ، وقد فارقته سذاجة الريف وبساطته وقناعته ، وصار يضيق بالعيش الضنك الذي تعيشه أسرته على غلة أرض لا تزيد على ثلاثة آلاف فرنك سنوياً .

وكان يشعر أن مستقبل أسرته الكبيرة ذات الاسم النبيل والدخل الضئيل متعلق بمستقبله الشخصي الى حد كبير . وكان هذا مضافاً الى تفاصيل كثيرة من دلائل الضيق المالي كشف لعينيه عنها القناع بعد تلك السنة التي خبر فيها الحياة في باريس — كانت هذه الدلائل دافعاً إضافياً له على الاعتقاد بأن أمامه أمراً واحداً لا محيص له عنه : هو النجاح الباهر السريع في الحصول على مركز ممتاز وجاه واسع ، حتى غدا الشاب الريفي شعلة متقدة من الطموح

وكان الفتى كـكل ذي نفس كبيرة لا يريد أن يدين بنجاحه لشيء عدا همته ومواهبه . بيد أنه تعلم من السنة التي قضاها في باريس أن المواهب وحدها لا تذهب بصاحبها بعيداً في مضمار النجاح الاجتماعي . وتعلم أيضاً مبلغ ما للمرأة من النفوذ والتأثير في ذلك المضمار ، فعزم على التزود لنفسه بسند نسوى يعتمد به في ذلك الكفاح الذي انتواه

وكان للفتى عمة هي مدام دي مارسياك كانت لها فيما مضى في البلاط قدم وعرفت هناك أعظم الرؤوس وأعرق الأنساب . فاتجه الى تلك العمة يسألها المعونة . فنثرت كناناتها من المعارف بين سيدات العاصمة وعجمت أعوادها عوداً عوداً فاستقر رأيها على أن أنفع هاتيك السيدات لابن أخيها هي الحسيبة النسيبة « فيكونتس دي بوسيان » فحملته اليها خطاباً على الطريقة القديمة توصيها به وتطلب اليها أن تدفع بالفتى في مراقي الحياة الارستقراطية الاجتماعية

فلما آب الى باريس في مفتتح العام الدراسي التالي بادر بارسال الخطاب الى الفيكونتس

فجاءه جوابها على صورة دعوة الى حفلة راقصة بقصرها فى الليلة التالية ، وكان ذلك فى أواخر نوفمبر من سنة ١٨١٩

□

وفى تلك الليلة أقبل الشاب الى خان فوكير فى الساعة الثانية صباحا ، وكان قد عاهد نفسه وهو فى نشوة الرقص أن يعوض هذا الوقت الضائع فى اللهو باحياء الليلة ساهراً إلى الصباح ليستذكر ما فاته من دروسه ، فلما بلغ حجرته نضا ملابسه وأوقد النار ليستدفىء واستعد للانصراف الى كتبه وقد زودته بهجة اللهو والزهو بدفعة من النشاط ، ولكنه واجه الكتاب المفتوح بنظر شارد لأن أحلاما من نوع آخر كانت قد ستأثرت بلبه رغم أنفه .. فقد أدرك من هذا المرقص الحافل أن الفيكونتس بوسيان ملكة من ملكات المجتمع الباريسى وأن دارها من أفخم الدور فى حى سان جيرمان، وأنها باعتبار اسمها وثروتها من أبرز شخصيات الأوساط الارستقراطية .. فأى حظ مواتٍ قد أتاح له وهو الفتى الريفى الفقير أن تفتح أمامه أبواب هذا القصر الكبير وأن يستقبل فيه بالعطف والتقدير ؟ وأنه لموقن أن هذه الدعوة تعد تسكريتا ضخماً لمثله فالدخول الى صالونات ذلك القصر المذهبة شرف عظيم لا يناله إلا الأكفاء لمعاشرة النبلاء .. وهو يدرى أيضاً أن قبوله فى ذلك القصر هو بمثابة تصريح نافذ بالمرور من جميع الأبواب والدخول الى أرقى البيوتات فى الوسط العالى من العاصمة الفرنسية

والحق أن الفتى قد بهر بما رأى فلم يكد يبادل الفيكونتس بضع عبارات حتى وجد نفسه غريقــاً فى خضم من الفاتنات الساحرات ، ولم يلبث أن ميز من بينهن شابة فينانة تكفى النظرة الأولى اليها لالقاء أى شاب صريعاً تحت قدميها ، وتلك هى الكونتس « انستازى دى ريستو » التى كانت معروفة بأنها صاحبة أجمل طلعة فى باريس ، فهى طويلة القامة حلوة القسمات رشيقة الحركة ، لها عينان سوداوان كبيرتان ، ويد جميلة ، وقدم صغيرة وإذا تحركت خلتها تتوقد بنار حامية من فرط الحيوية .. وهى الى هذا عبلة لا عيب فى تكوين جارحة من جوارحها وليس فى امتلائها ما يوحى باتهامها بالبدانة أو الثقل ، وكانت هذه الصورة هى الحلم الذهبى الذى طالما داعب خيال الفتى جيراستنياك .. وقد احتال حتى سجل اسمه مرتين فى قائمة مراقصيها واستطاع أن يبادلها بضع كلمات خلال الرقصة الأولى :

— أين ترى يتاح لى أن أراك ثانية يا سيدتى ؟

— فى أى مكان ، فى الغابة ، أو فى المسرح أو فى بيتى

واجتهد الفتى بعد ذلك أن يتقرب إليها بقدر الامكان ، فلما قال لها إنه من أبناء عمومة الفيكونتس دى بوسيان وجد لديها استعدادا يقرب من التهــافت لدعوته لزيارتها ، وكانت ابتساماتها ساعة افتراقهما من الرقة والظرف بحيث اعتقــد الفتى أن تلك الزيارة أضحت من الوجهة الاجتماعية حتما لزاما



« ووضع عينه على ثقب المفتاح ودقق النظر فى الغرفة »

ويمكننا ان نتصور مبلغ الفرحة الطاغية التي استولت على الفتى الذى حقق من الأحلام فى ليلة واحدة فوق ما كان يتمناه فى عام : فقد فتح له بيتان من ارفع بيوت باريس عماداً ، والبقية بعد هذا آتية لا ريب فيها ، ثم هو قد لقى فاتنة أحلامه وحظى منها بما يعلى له فى حبال الآمال فأخذ يتخيل المشاهد بعد المشاهد من مستقبله السعيد حتى نبهته من هذه الأحلام المعسولة آهة حرى كآهات محكوم عليه بحمل عبء لا طاقة له به ، آهة سرت فى صمت الليل الساجى فكان لها فى حنايا الفتي الحالم بالسعادة والحب صدى هائل حتى لقد خالها حشرجة النزع من رجـــل يحتضر .. ففتح الباب برفق ، فرأى فى الدهليز خيطاً من النور ينساب من تحت باب الأب جوريو .. وخشى الفتي أن يكون جاره الشيخ قد ثقلت عليه علة طارئة فوضع عينـــه على ثقب المفتاح ودقق النظر فى الغرفة ، فرأى ــ ويا هول ما رأى ! رأى الرجـــل الشيخ الذى خشى عليه المرض منصرفاً إلى عمل إجرامى من واجبه نحو المجتمع أن يتقصى حقيقته .. رأى الشيخ جوريو منصرفاً الى الضغط بكل قوته على فنجان ووعاء من الفضة المذهبة منقوشين نقشا فاخراً محاولا أن يجعل منهما سبيكة لا تتميز لها صورة أو نقش .. فلمـــا رأى الفتي ذراعى الشيخ ترتجفان من شدة الضغط قال فى نفسه :

ــ انه لص ولا ريب أو هو ضالع مع اللصوص لتصريف ما يسرقون .. أتراه لهـــذا يتصنع الفقر والبلاهة حتى يخفى عن الناس حقيقته ؟

وعاد الفتى الى ثقب الباب يدقق منه النظر مرة أخرى فاذا الشيخ قد وصل الى مرحلة دحرجة السبيكة فوق المائدة لكى يجعل منها قضيباً مستديراً .. وراعه أن الشيخ الفانى لا يجـــد مشقة كبيرة فى هذا العمل ، فهتف الفتى فى عجب شديد وقد رأى نجاح جوريو فى تشكيل القضيب :

ــ انه فى قوة أوغسطس ملك بولندا . .

ولـكن أدهشه أكثر من هذا الذى رأى من دلائل قوة الشيخ أنه أخذ يتأمل نتيجة عمله بدموع مدرارة تسيل على خديه ! ثم نفخ الشمعة وسمعه ايجين يئن أنينا شديداً وهو يستلقى على فراشه ثم يهتف بصوت مختلج أجش مسموع :

ــ يا الطفلة المسكينة

فسبق الى وهم الشاب أن بالرجل مساً ، وآثر أن يكتم ما رأى بعض الوقت حتى يتحرى الحقيقة ولا يتعجل التشهير بجاره المسكين ..

وتأهب الشاب للعودة الى غرفته بيد أنه سمع على حين غرة صوتاً غامضاً يشبه خفق الخفاف صاعدة الدرج ، فأرهف أذنيه وتبين بالفعل صوت أنفاس رجلين ، فعجب كـثيراً أنه لم يسمع صوت فتح الباب الكبير ولأنه يعلم أن الخادم كريستوف أحكم اغلاق البـــاب بالمزلاج على أثر حضوره ، ثم رأى فى الحال ضوءاً فى الدور الثانى فى حجرة فوتران فهبط بضع درجات واسترق السمع وطرق أذنيه رنين نقود ، ثم اطفىء النور وسمع الأنفاس تتردد فى الظـــلام مرة أخرى

هابطة الدرج ، وفتحت مدام فوكير نافذة مخدعها وصاحت :

— من هناك ؟

فأجابها فوتران بصوته العميق :

— هذا أنا عائداً من الخارج ياماما فوكير ..

وهز الفتى رأسه وقال لنفسه :

— كم فى جوف الليل من أعاجيب ! حقاً أنه ينبغى على المرء أن يفتح عينيه جيداً ليعرف ما يدور فى بلد عظيمة مثل باريس أسرارها أكثر بكثير من ظاهر أمرها

وهكذا سلبت أحلام السعادة التى ألهمته إياها مدام دبرستو ثم سلب الشيخ جوريو بأناته وعجيب تصرفاته وسلبت الأصوات الخفية فى ظلام الحان ما كان يدخره الفتى لتحصيل مواد القانون فى ليلته النابغية ، فأوى الى فراشه متعب الأعصاب ونام نوماً عميقاً دون أن يقرأ حرفاً واحداً . . . .

أخبار وأسرار

وفى الصباح التالى كانت باريس تلفها عباءة كثيفة من الضباب الذى يهبط عليها أثناء الليل فى بعض الأحايين حتى تسودها عند الصبح ظلمة حالكة يضل فيها أكثر الناس خبرة بمعالم الطريق ، ويتأخر فيها أشد الناس تدقيقاً عن مواعيد أعمالهم ، فانه يظن أن الساعة الثامنة من الصباح حين تكون فى الواقع قد آذنت بالظهيرة

لهذا كانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة ولم تكن مدام فوكير قد غادرت فراشها . وكان الخادم كريستوف والطباخة البدينة سيلفى وقد هبا من نومهما متأخرين عن مألوف عادتهما جالسين يتناولان قهوة الصباح وعليها طبقة سميكة من القشدة التى اختلساها من اللبن المعد لتقديم للنزلاء بعد أن أسرفا فى غليه بعد ذلك حتى لا تكتشف مدام فوكير أمر ذلك الاختلاس وقال كريستوف وهو يغمس لقمته الأولى فى قدح القهوة :

— سيلفى . لقد حضر رجلان الليلة للاجتماع بالسيد فوتران مرة أخرى ، فاذا سألتك سيدتنا تجاهلى كل شىء . فهو رجل لا بأس به

— وهل أعطاك شيئاً ؟

— أعطانى أول الشهر مائة سنتيم ، وهى تفحة تحمل فى طواياها المقصود منها ، وهو الكتمان

— إنه ومدام كوتير هما اللذان لايدققان فيما يبذلان لنا ، ولكن الباقين يودون لو استردوا باليسار ما يعطوننا باليمين

— وماذا يعطوننا ؟ شيئاً لا يسمن ولا يغنى من جوع ! فالأب جوريو أخذ يطلى حذاءه بنفسه طيلة العامين الماضيين . وهو على كل حال خير من بواربه القذر الذى لا يطليهما على الاطلاق ، فهو يتمنى لو تناول سائل الدهان بدل أن يطلى به جلد حذائه المتشقق ، وأما الطالب الريفى فيعطينى أربعين سنتيما لا تكفى لما يستهلك على طلاء حذائه من الفرش ، ثم هو يبيع ملابسه القديمة

— ربا ه . الساعة قد بلغت العاشرة إلا ربعاً ، فها هى ساعة الكنيسة تدق

— وما الضير ؟ لقد خرج النزلاء جميعاً . أما مدام كوتير وربيبتها فمضتا الى الكنيسة لحضور قداس الساعة الثامنة فى بيعة القديس ايتيان . وأما الأب جوريو فخرج متأبطاً شيئاً فى لفافة . وأما الطالب فلا يعود إلا عند انتهاء محاضرته بعد العاشرة . وقد رأيتهم جميعاً يخرجون

وأنا أكنس السلم ، وقد أصابني الأب جوريو بصدمة شديدة بالذى كان يحمله ، فهو شيء صلب كالحديد . يا الرجل المسكين ، فهم لا يتركونه في سلام مع أنه خير منهم كلهم مجتمعين . وهو إذا كان لا يعطيني شخصياً شيئاً ذا بال ، فالسيدات اللاتي يعنني اليهن على جانب كبير من الوجاهة وينفحنني هبات كبيرة

— أتعني أولئك اللواتي يزعمهن بناته ؟ إن له منهن حفنة كبيرة

— إني لم أذهب أبداً سوى الى اثنتين هما بعينهما اللتان تأتيان الى هنا

— هذه سيدتنا تتقلب في فراشها ، وستقيم الدنيا وتقعدها فمن الخير أن أذهب اليها ، خذ بالك من اللبن واحذر أن تعبث به الهرة

وصعدت سيلفي الى سيدتها التي ابتدرتها بقولها :

— ما هذا يا سيلفي ؟ العاشرة إلا ربعاً ؟ كيف تركتني أنام الى هذه الساعة ؟ إن هذا لم يحدث لي من قبل . أعطني المشد واذهبي بسرعة لاعداد الافطار

وان هي إلا بضع دقائق حتى هبطت مدام فوكير الدرج لتجد الهرة قد انهمكت في لعق اللبن من بعض الآنية بكل همة ونشاط ، فصاحت بها :

— ميستيجريس !

فهربت القطة ولكن لتعود بعد لحظة فتتمسح بساق سيدتها التي نادت سيلفي وقالت لها :

— انظري ماذا فعلت القطة ؟

— لا تجزعي يا سيدتي ، فسنصنع من هذا اللبن قهوة للأب جوريو وسأعوض ما نقص من اللبن بالماء القراح ، وثقي أنه لن يلحظ الفرق لأنه لا يتنبه الى شيء أبداً حتى ولا الى ما يأكل

وفي هذه اللحظة سمع جرس الباب ودخل فوتران القاعة متغنياً بصوته العريض العالي بأغنية شعبية ، قطعها ليبتدر صاحبة الخان بقوله :

— عمي صباحاً ياماما فوكير

ثم طوقها بذراعيه ، وأخذ يساعدها في إعداد المائدة وهو يوجه اليها الدعابات المرحة . . ثم صاح فجأة :

— لقد رأيت اليوم شيئاً عجباً

— وما هذا ؟

— رأيت الأب جوريو في شارع ولية العهد في منتصف التاسعة هذا الصباح عند دكان صائغ ممن يشترون الفضيات القديمة ، فوقفت أنتظر ماذا عساه يصنع فاذا هو يتجه بعد ذلك الى منزل مراب مشهور اسمه كوبسك من أخس المرابين اليهود ، لا يعجزه أن يبيع عظام أبيه اذا وجد في هذا نفعا يعود عليه من وراء ذلك

— وماذا عسى الأب جوريو أن يفعل عنده ؟

— لا شيء طبعا سوى أن يحاول إصلاح ما تورط فيه من خراب وإفلاس وديون بسبب تهافته على هاتيك الفتيات . . .

وفى هذه اللحظة صاحت سيلفى :

— هذا هو

وسمع الأب جوريو يصيح :

— تعال يا كريستوف معى الى فوق

وتبع كريستوف الأب جوريو ولكنه لم يلبث أن هبط وحده فسألته سيدته :

— الى أين يا كريستوف ؟

— فى حاجة للسيد جوريو

فانتزع فوتران من يده مظروفا كان فيها وقرأ العنوان بصوت عال :

— الى الكونتس اناستازى دى ريستو

— والى أين ستحمل هذا الخطاب ؟

— الى شارع هيلدر على ألا أسلمه إلا ليد الكونتس شخصيا

فرفع فوتران المظروف أمام عينيه فى مواجهة الضوء وتساءل :

— وماذا فيه ؟ أورقة نقد ؟ كلا ! بل إيصال مخالصة . رباه ! إنه رجل شهم خدوم . اذهب الآن يا كريستوف بهذا الخطاب وثق أنك ستتلقى هبة سخية

وكانت المائدة قد أعدت فى ذلك الوقت تقريبا ، فلم تلبث مدام كوتير وفيكتورين أن دخلتا . فسألت مدام فوكيه :

— أين كنتما هذا الصباح ؟

فأجابتها مدام كوتير وهى تجلس أمام الموقد لتدفىء قدميها :

— كنا نصلى فى كنيسة القديس ايتيان ، فاليوم هو موعد توجهنا كما تعلمين للقاء والد فيكتورين ، فالفتاة واجفة

— خير ان شاء الله .. تدفئى يا فيكتورين ..

وقرب فوتران مقعداً للفتاة من النار وقال لها :

— جميل أن يصلى المرء كى يرقق الله قلب الوالد..ولكن هذا وحده لا يكفى، فأنت بحاجة الى صديق يحسن التفاهم مع هذا القدم ، فرجل مثله يملك ثلاثة ملايين لا يكون انساناً اذا ضن عليك ببائنة حسنة .. فالفتيات الحسان لابد لهن من بائنات فى هذا الزمان

فرشقته الفتاة بنظرة يترقرق فيها الدمع وهتفت به :

— بالله سيدى إذا كانت لديك وسيلة ما للاتصال بأبى أن تخبره أن عطفه الأبوى وشرف والدتي أغلى عندى من كل ما فى العالم من أموال .

وفى هذه اللحظة هبط من أعلى جوريو والآنسة ميشونون وبواريه فى وقت واحد.. ولعل رائحة الشواء هى التى اجتذبتهم .. فلما جلس الجميع الى المائدة دقت الساعة العاشرة ، وسمع وقع خطوات الطالب الريفى مقبلا من الخارج ، وبعد أن حيا جلس الى جوار الأب جوريو وقال وهو يتناول قطعة طيبة من الشواء وكسرة ضخمة من الخبز ظلت مدام فوكير مثبتة فيها عينيها لتقدر وزنها وتقومها :

— لقد حدث لى شىء خارق فقد كنت بالأمس فى مرقص أقيم فى دار ابنة عم لى - الكونتس دى بوسيان - وهى دار بالغة الفخامة فاخرة الأثاث والرياش وكانت المأدبة من أروع مايكون وكنت أنا شخصياً كأننى ملك زمانى .. فقد راقصت أجمل حسناء بين الحاضرات ، كونتس ساحرة ، هى ولاشك أشد من رأيتهن فى حياتى فتنة .. انها حورية من حوريات الأساطير تتألق بهاء وتشرق سناء .. وليس هذا عجيباً ، ولكن العجيب أننى رأيتها هذا الصباح سائرة على قدميها فى شارع « دى جرى » فخفق قلبى خفقاناً عنيفاً ، وخطر لى . . .

فقاطعه فوتران بقوله :

— إنها كانت قادمة الى هنا ؟ ها ها ! لعلها يا صاح كانت بسبيلها الى زيارة المرابى « كوبسك » فلو قدر لك أن تنبش صدور غانيات باريس ، لوجدت المرابين يشغلونها أكثر مما يشغلها العاشقون .. إن صاحبتك ياصديقى هى الكونتس انستازى دى ريستو ، وتقيم فى شارع هلدر . !

فما سمع الطالب هذا الاسم حتى حملق فى فوتران . . أما الأب جوريو فرفع رأسه فجأة وجعل يحدق فى المتحادثين تحديقاً يفيض بالقلق والاهتمام بحيث استرعى دهشة سائر النزلاء وقال :

— إذن سيصل كريستوف متأخراً ما دامت قد ذهبت الى كوبسك

وكان صوته ظاهر الجزع .. فمال فوتران على مدام فوكير وهمس لها :

— لقد صدق حدسه . .

ومضى جوريو يتناول طعامه بطريقة آلية غير منتبه الى ما يأكل ، فقد كانت الحيرة والغباوة ظاهرتين عليه بجلاء .. أما الطالب فقال بدهشة :

— ومنذا الذى أخبرك باسمها بحق الشيطان يا سيد فوتران ؟

— على رسلك ! فهذا الأب جوريو يعرف كل شىء عن الموضوع ، فلماذا أجهله انا ؟

— السيد جوريو ؟

وتنبه الشيخ المسكين فتساءل :

— ماذا هناك ؟ أهى إذن كانت باهرة الحسن ليلة أمس ؟

— من ؟

— مدام دى ريستو . .

وهمست مدام فوكير لجارها فوتران :

— أما ترى إلى الرجل الفانى المتصابى وكيف تبرق عيناه ؟ !

وهمست الآنسة ميشونو فى أذن الطالب :

— هو إذن يحوزها حقاً . . ؟

ولكن الفتى لم يلق بالا لكلامها ، بل أجاب جوريو الذى كان يتنزه النظر :

— أجل ! انها كانت أبدع حسناً مما يتصور العقل . . ولولا وجود مدام دى بوسيان لكانت ملكة المرقص ولا مراء ، فقد كانت محور اهتمام الرجال كافة .. وسمى مثلا كان الثانى عشر فى قائمتها ، ولم تفتها رقصة واحدة ، حتى كادت الحاضرات ينشققن من الغيظ . .

وعلق فوتران على هذا الحديث بقوله :

— هكذا النساء الغنيات الحسناوات فى باريس : بالأمس ملكة مرقص فى قصر دوقة ، واليوم ذليلة على باب مراب دنىء . . فلا تفوتنك حكمة هذه الظاهرة الجديدة : فالباريسية اليوم إذا لم يسعفها زوجها بنفقات بذخها باعت نفسها لتحصل على المال .. فاذا أعجزها هذا بحثت عن المال بأى وسيلة ، ولو أدى بها هذا إلى انتزاع اللقمة من فم أمها !

واكفهر وجه الأب جوريو ، بعد اشراق كان يكسوه وهو يصغى للطالب

أما فيكتورين فكانت منصرفة عن هذا الحديث كله بالخطوة التى كانت مزمعة أن تقدم عليها .وأشارت إليها مدام كوتير أن الوقت قد حان لكى تنهض وتلبس ملابس الخروج ، فلما انصرفت السيدتان انصرف معها الأب جوريو ، فقالت مدام فوكير للباقين بحرارة :

— أما رأيتم ؟ لقد وضح بما لا يدع مكاناً للشك أن الرجل قد هدم نفسه وخسر ثروته تحت أقدام هاتيك النسوة . . .

فصاح إيجين دى رستنياك :

— يستحيل عليك أن تقنعنى أن الكونتس دى ريستو الحسناء ذات صلة بهذا الأب جوريو

فأجابه فوتران بتؤدة :

— ان أمثال هذا الرجل تستقر فى آذانهم فكرة لا سبيل الى نزعها منها ، وهى أنه لا يروى ظمأهم الا ماء ينبوع معين ، قد يكون ملحاً أجاجاً ، وفى سبيل رشفة من هذا الينبوع قد يبيع المرء منهم زوجته وبيته ، بل قد يبيع روحه للشيطان ! وهذا الينبوع يختلف اسمه باختلاف الناس ، فهو الميسر عند فريق منهم ، وهو المضاربة فى المصفق « البورصة » عند فريق آخر، وهو الموسيقى أو جمع التحف ولوحات الصور عند فريق ثالث . . وهو امرأة بعينها عند فريق رابع ، فلو قدمت للواحد منهم نساء الأرض كافة لما عدل بهن هذه المرأة

المينة التى قد لا تحبه ، بل قد تسيء معاملته الى أقصى حد .. والأب جوريو من هذا الفريق الأخير .. وأعتقد ان الكونتس تأمن جانبه لالتزامه الكتمان ، ولبعده عن اثارة الشبهات فى محيطها الراقى ، فهى تستغله مادياً .. وأما الشيخ المسكين فهو يتقد حباً لها ، فلا يشغل ذهنه خاطر سوى هواها ، وفيما عدا هذا فهو كما ترى دابة بجهاء . . أما سر ما حدث اليوم ، فهو ان الأب جوريو قد حمل الى الصائغ صحافا فضية لصهرها ، ثم توجه الى المرابى كوبنك فى شارع دى جرى .. فاذا فعل عندما آب الى هنا ؟ أرسل كريستوف الى دار الكونتس دى ريستو .. وقد أرانا كريستوف العنوان على مظروف بداخله ايصال مخالصة .. وما دمت أنت قد رأيتها بنفسها لدى تفس هذا المرابى ، فالمسألة لاشك لماصقة الاستعجال .. ولاشك أيضاً أن الأب جوريو قد سدد لها دينها بشهامة .. أجل ان هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج الى استنتاج .. وهذا يدلك يا صديقى طالب العلم والعلى ان صاحبتك الكونتس كانت وهى تضحك أمس وتمرح وترقص وتتخايل وتتمايل انما كانت فى الواقع تتقلب على جمر الغضا قلقاً على دينها المذل .. أو لعله دين عشيقها !

— لقد جعلتنى على أحر من جمر الغضا أنا نفسى لهفة على معرفة الحقيقة عن يقين . . وإنى لذاهب غداً إلى دار الكونتس دى ريستو . . .

— ولعلك واجد الأب جوريو عندها ، لقبض مكافأته على عمله النبيل . . .

وحينئذ صاحت مدام فوكير فى دهشة بالغة :

— أتقول ان الأب جوريو حمل صحافه الفضية إلى الصائغ ليصهرها ؟

وسأل ايجين فى لهفة :

— هل كانت على غطائها حمامتان تتلاثمان ؟..

فقالت صاحبة الخان :

— انها عنده صنو حياته ...

فقال فوتران :

— ها أنت ذا ترى إلى أى حد بلغ هوس الرجل بهذه المرأة

وقام الطالب إلى حجرته ، وعلا فوتران الخان . وماهى إلا دقائق حتى استقلت مدام كوتير وفيكتورين عربة أجرة ،وقدم بواريه ذراعه للآنسة ميشونو ليتمشيا قليلا فى حديقة النباتات...

فقالت سيلفى :

— انها أول مرة يخرجان فيها معاً ... وهما صنوان يبوسة ونحولا وصلابة ، حتى لأخشى إذا اصطدما أن يتقدح عنهما الشرر !

▭

فلما عاد الأب جوريو فى الساعة الرابعة ، لاحظ احرار عينى فيكتورين . وكانت مدام فوكير

تصغى إلى قصة زيارتها الفاشلة لوالدها ذلك الصباح . فقد ضاق صدر السيد « تايفير » بمحاولات ابنته ومدام كوتير أن تقابلاه ، فسمح لهما أخيراً ببضع دقائق ، لكى يصرفهما وجهة نظره بصفة نهائية . . .

واستطردت مدام كوتير تقول لها :

— عجباً ياسيدتى انه انه لم يسمح لفيكتورين بمجرد الجلوس ، فظلت واقفة طول الوقت . وكان يوجه إلى الكلام ، لانى غضب — فليته أظهر هذا الانفعال — بل بكل هدوء قتل ، وقال اننا نضيع وقتنا وجهدنا سدى بطلب الاجتماع به ، وأن الآنسة الصغيرة — فهكذا يدعوا بنته ! — تنزل بنفسها فى نظره بمثابرتها على ملاحقته — وهى لاتطلب مقابلته إلا مرة واحدة فى كل سنة ! — وانه بما أن والدة فيكتورين لم تكن لها ثروة خاصة ، فلا حق للفتاة عنده فى شىء . . . وجعل يضرب على هذه النغمة حتى بكت المسكينة ، وألقت بنفسها تحت قدميه وقالت له بشجاعة انها انما تطلب مقابلته من أجل شرف والدتها فحسب ، وأنها على أتم استعداد لاطاعة جميع رغباته بغير تذمر ، وتوسلت اليه بكل تذلل أن يقرأ الكلمات الأخيرة التى سطرتها له والدتها فى ساعة موتها . . . ومدت يدها اليه بالخطاب فى تضرع يفتت الأكباد ، لست أدرى من أين ألهمها الله عباراته الرقيقة المؤثرة التى جعلتنى أبكى بحرارة . . . فهل تدرين ياسيدتى ماذا كان يفعل هذا الوغد وهى تقول له هذا الكلام ؟ كان يقص أظافره ! ثم تناول الخطاب الذى سطرته مدام تايفير المسكينة بدموعها وألقى به فوق رف الموقد قائلا « لابأس . . » وهمّ أن يقدم يديه لابنته فينهضها من مجثمها ، واعله أيضاً كان سيقبلها ، ولكنه رد يده فى آخر لحظة ! . . أليس هذا فظيعاً ! . ثم دخل ابنه العتل ، ولم يلتفت إلى شقيقته !

فصاح الأب جوريو :

— هما حيوانان بهيمان إذن !

واستطردت مدام كوتير ، غير ملقية بالا إلى تعليق الشيخ المسكين :

— وحينئذ خرج الوالد والولد بعد أن انحنيا لى واعتذرا لارتباطهما بموعد سابق . . وكان هذا ختام زيارتنا . . وعزائى أنه رأى ابنته . وانى لأعجب كيف ينكر نسبتها اليه . وكيف يخفى شبهها الكبير به ، فانها صورة منه طبق الأصل . . .

الجولة الأولى

وفى اليوم التالى تعطر راستينياك وتزين محتفلا بزيه أيما احتفال ، ثم توجه فى نحو الساعة السادسة بعد الظهر إلى دارمدام دى ريستو . وكان أثناء الطريق يحاور نفسه حالماً بأقصى ما يمكن أن يتخيله من السعادة على عادة الاغرار من الشبان حين يعشقون أو حين يتصورون أهدافهم المأمولة على العموم ، فانهم يرون سبلهم إلى غاياتهم مفروشة بالورد خلواً من العقبات والمعوقات فضلا عن الأخطار . وكان يمشى فى حذر شديد خوفاً على حذائه اللامع أن يتسخ ، ويعد فى ذهنه العبارات الخفيفة الظريفة التى يجيب بها على أسئلة مدام دى ريستو كما يفترضها ، ويراجع تلك العبارات للتنقيح والتصحيح كى تكون تمهيداً صحيحاً لاعلانها بهواه عندما يأون الأوان ولكن لا يمنع الحذر من القدر ، فقد وقع الذى كان يخشاه واتسخ نعلاه ، واضطر إلى مسحه وتنظيف سرواله عند البالية رويال ، وقال لنفسه بحسرة وهو يقبض بقية قطعه من ذوات المائه سنتيم كان قد حملها معه على سبيل الاحتياط لقدرات المتواريء :

— لو كنت غنياً لذهبت إلى هناك فى عربة ، ولأتيح لى أن أتفرغ للتفكير والتدبير ...

وأخيراً وصل إلى شارع هلدر وطلب مقابلة الكونتس دى ريستو . وتقبل فى حنق النظرة المتعالية التى صبها عليه خدم القصر حين رأوه يعبر الفناء راجلا دون أن يسمعوا صوت عربة تقف بالباب . وقد تأثر لهذه النظرة بحيث طارت من ذهنه جميع العبارات والتدبيرات التى ظل يكدسها فيه استعداداً لهذا اللقاء . ووقف المسكين ينتظر عودة الوصيف بالاذن وهو ينظر من نافذة غرفة الانتظار . وأخيراً عاد الوصيف ليقول :

— سيدى . ان سيدتى فى حجرة زينتها مشغولة عن الرد على سؤالى ، ولكن إذا شاء سيدى فليتفضل بالدخول إلى الصالون ، فثمت زائر آخر ينتظر سيدتى فيه

وتقدم راستينياك ففتح الباب الذى دخل منه الوصيف بكل ثبات ، لكى يبرهن له أنه على علم وصلة بالبيت وأهله ، ولكنه ألفى نفسه فى حجرة مزدحمة بالمصابيح وأدوات التدفئة ومناشف الحمام ، فكانت الضحكات المكتومة التى سمعها صادرة من الدهليز هى القاضية على البقية الباقية من هدوئه وثقته بنفسه . ثم قال له الوصيف فى ذلك الاجلال المبالغ فيه الذى يبدو فى الواقع مزيداً من السخرية اللاذعة :

— من هنا يا سيدى من هنا

وتراجع راستينياك كما أشار إليه الوصيف ولكن ارتباكه جعله يصطدم ببعض الأدوات فكاد يقع على الأرض ، فسنحت له الفرصة ليرى باباً يفتح فى آخر الدهليز الذى نفضى إليه الحجرة ، ويسمع صوت مدام دى ريستو وصوت الأب جوريو معاً ، ثم صوت قبلة ! وتبع الوصيف فاخترق قاعة المائدة إلى الصالون الأول حيث جلس فى مواجهة النافذة المطلة على الفناء لكى يتاح له أن يتحقق هل الأب جوريو هو الذى كان مع الكونتس أم لا . وكان قلبه يدق دقاً متداركاً عنيفاً وقد قفزت الى ذاكرته تعليقات فوتران وآراؤه . وكان الوصيف لا يزال بالباب فاتجه إليه شاب بالغ الأناقة وقال له بصبر نافد :

— إنى ذاهب ياموريس ، فقل لسيدتك الكونتس انى انتظرتها أكثر من نصف ساعة

ثم اتجه الى النافذة التى كان يطل منها ايجين ، ولعله ما فعل ذلك ليطل على الفناء بل ليتبين وجه الفتى . وأجابه موريس قائلا :

— يحسن بسيدى الكونت أن ينتظر برهة أخرى ، فقد فرغت سيدتى مما يشغلها

وفى هذه اللحظة ظهر الأب جوريو متجهاً إلى الباب الخارجى عبر الفناء ، خارجاً من باب السلم الصغير ، ومنهمكا فى فتح مظلته دون أن يلقى بالا إلى الباب الكبير الذى فتح على مصراعيه ليدخل منه شاب يقود عربة خفيفة أنيقة ، ولم ينتبه إلا فى اللحظة الأخيرة لكى ينجو من الوقوع تحت سنابك الخيل . والتفت الشاب صاحب العربة نحوه فى غضب، حتى إذا تبينه ألقى إليه تحية شبه مقتضبة أجابه عليها الأب جوريو بتحية ودود تطفح بالطيبة

وقد مرت هذه الأحداث بسرعة البرق الخاطف ، والطالب منصرف اليها حتى نبهه صوت الكونتس فى الحجرة وهى تقول بلهجة يختلط فيها العتاب بالدلال :

— أكنت تنوى الانصراف حقاً يامكسيم ؟

فالكونتس لم تنتبه إلى حضور العربة وسائقها الوجيه . أما راستينياك فاستدار ليرى الكونتس فى ثوب من الكشمير الأبيض فيه عقد وردية ، وشعرها متروك على سجيته ، والعطر يتضوع منها . فلا ريب أنها خارجة من الحمام الذى كسى جمالها الخلاب بضرب من الطراوة زادها فتنة على فتنة ، أما عيناها فكانتا لامعتين لمانا رطيباً . فلما تناول مكسيم يدها ليقبلها تبين راستينياك وجه مكسيم ، وتنبهت الكونتس إلى وجود راستينياك ، فقالت له بلهجة لا يخفى مغزاها على اللبيب :

— أهذا أنت يامسيو دى راستينياك ؟ كم أنا مسرورة أن أراك الآن هنا !

وجعل مكسيم ينقل النظر بين إيجين والكونتس عما معناه :

— أظن ياعزيزتى أنك لن تعدمى وسيلة لاجلاء هذا الفضولى . خلصينا منه بالله

وكانت الكونتس ترمق هذا المكسيم الأنيق الرقيع بنظرات ملؤها الامتثال ، من قبيل هذه النظرات التى تفضح مكنون سر المرأة وهى لا تدرى ، فأحس راستينياك بحقد شديد على

هذا الشاب . . فشعره الأشقر المجعد تجعيداً جيداً قد أشعره بمبلغ ما عليه شعره هو من اضطراب وبشاعة . ثم نعلاه الثمينان الساطعان ببريق رائق قد اطلعاه على مبلغ حرمان نعليه من الأناقة واللمعان برغم كل ما بذله أثناء الطريق من عناية وحذر ، ثم أى فرق هائل بين ملابس مكسيم وملابسه ، فملابس مكسيم دقيقة محبوكة تبرز أجزاء جسمه فكأنه فتاة دقيقة الخصر بارزة الصدر

وبدون أن تنتظر رداً من ايجين ، اتجهت مدام دى ريستو إلى الصالون الآخر ، وتبعها اليه مكسيم .. فتبعهما إيجين حنقاً فوقف ثلاثتهم قرب المدفأة فى وسط الصالون الكبير. وكان الطالب يعلم عن يقين أن وجوده يضايق هذا الشاب السمج ولكنه عزم على المجازفة باغضاب مدام دى ريستوفى سبيل إغاظته ، وقد أدرك علاقة مكسيم بها فانطوى له على كراهية الغريم لغريمه ، غير عالم أن من عادة الكونت مكسيم دى تراى أن يستدرج الناس إلى إهانته، فاذا فعلوا بارزهم وقتلهم

وإذا كان إيجين صياداً ماهراً فانه على كل حال لم يبلغ المرتبة التى وصل اليها مكسيم من إصابة الهدف عشرين مرة من اثنتين وعشرين طلقة

وانصرف الكونت إلى تقليب النار فى المدفأة بوجه هضيم عليه غبرة السخط ، فتغير وجه انستازى ونظرت إلى ايجين نظرة تساؤل بارد ، كأنها تقول له :

— لماذا لا تمضى من حيث أتيت ؟

وتصنع ايجين السرور وقال لها :

— سيدتى ، لقد تعجلت المناسبة لكى أراك حتى ...

ولم يتم عبارته ، لأن باباً فتح ودخل منه السيد الذى دخل الفناء يقود عربة ، وقد بدا عارى الرأس ، فلم يحى الكونتس وألقى على ايجين نظرة متسائلة ، ومد يده إلى مكسيم فصافحه بطريقة تنم عن أخوة دهش لها ايجين ، ذلك أن أهل الريف يجهلون مناعم الحياة المثلثة الأقطاب . وقدمت الكونتس زوجها إلى الطالب قائلة :

— مسيو دى ريستو

فانحنى ايجين انحناءة عميقة واستطردت الكونتس :

— وهذا هو مسيو دى راستنياك ، من ذوى قربى الفيكونتس دى بوسيان عن طريق آل مارسياك ، وقد كان لى شرف مقابلته فى حفلتها الراقصة الأخيرة

« من ذوى قربى الفيكونتس دى بوسيان عن طريق آل مارسياك »

كانت هذه الكلمات كافية لاحداث تأثير سحرى على زوجها فخرج عن فتوره وترمته وحيا الفتى بحرارة . بل أن الكونت مكسيم أيضاً تخلى عن وقاحته وازدرائه . فكان هذا الانقلاب أوضح برهان لدى الطالب الريفى على مبلغ ما للأسماء العريقة من نفوذ فى المجتمع الباريسى .

وساعدت هذه النجدة على تفتق ذهنه وحضور بديهته فعادت إلى ذاكرته العبارات والاشارات التى كان قد أعدها فى ذهنه لهذه الزيارة

وأخذ الكونت دى ريستو يتحدث إلى الفتى عن شجرة النسب التى تربط منذ أجيال أسرته بأسرة الفيكونتس دى بوسيان حتى إذا عرف أن بين أجداده قائداً بحريا هتف به :

— أليس هو ياسيدى الذى كان يقود السفينة « المنتقم » قبل سنة ١٧٨٩ ؟

— هو عينه . !

— إذن فهو قد كان يعرف جدى أنا الذى كان يقود السفينة واروك ...

وهز مكسيم كتفيه وألقى على الكونتس نظرة مؤداها أن زوجها ما دام قد أخذ فى ذلك الحديث فهو لن ينتهى منه أبداً كعادته ، ففهمت انستازى مراده وابتسمت وهى تقول له :

— تعال يا مكسيم معى فلدى شىء أريد أن أكلفك به ، أما أنتما يا سيدى العزيزين فسنترككما لتبحرا على هواكما على ظهر المنتقم أو الواروك

ونهضت فأشارت إلى مكسيم فتبعها نحو حجرة زينتها . وما وصلا إلى الباب حتى قطع الكونت حديثه مع ايجين وهتف بزوجته :

— انستازى . ابقى يا عزيزتى فأنت تعلمين ...

— انى عائدة ، فلن تستغرق المهمة التى أريد تكليف مكسيم بها سوى دقائق

وعادت وشيكا ، فقد أدركت بفطرتها أن هذه اللحظة من اللحظات التى تثور فيها شكوك الأزواج بقوة وإن كانت دوافع الشك غير قوية . وأدركت أيضاً أن الطالب الشاب هو المسئول عن استيلاء هذه الحالة على زوجها بإثارته اهتمامه بموضوعه المفضل وهو البحرية ، فرشقت الطالب بنظرة غيظ وضيق لم يرها سوى مكسيم الذى قال للكونت والكونتس والطالب :

— أراكم مشغولين ، ولا أريد أن أثقل عليكم

وانصرف ، فناداه الكونت عازما عليه بالبقاء ، وبادرت الكونتس باقتفاء أثره وهى تدعوه إلى العشاء ، ثم بقيا فى الصالون الآخر برهة طويلة على أمل أن يصرف الكونت الطالب الشاب

وكان الشاب يسمعهما تارة يضحكان وتارة يتحدثان ،فبذل جهده فى الظفر برضى الكونت بالمجاملات حيناً وبالدعابات حيناً آخر ، مجتهداً فى فتح أبواب جديدة للمناقشة فى الأمور التى يهتم بها حتى يتبين مدى علاقة جوريو بالكونتس قبل انتهاء الزيارة . فهذه المرأة المدلهة فى مكسيم ، والمتسلطة على زوجها ، والتى تربطها بصانع الإطريه « الشعرية » السابق صلات غامضة ، كانت تبدو له لغزاً يتلهف على استجلاء خفاياه ، ويضمر الطمع فى الوصول إلى عرش قلبها يوما من الأيام

ونادى الكونت زوجته من جديد فقالت لعاشقها :

— لا فائدة يا عزيزى مكسيم ، لابد من التسليم بالأمر الواقع ، قالى هذا المساء

— أرجو يا عزيزتى أن توصدى بابك فى وجه هذا الشاب الذى يضمر لك جذوة مشتعلة من الهوى يبدو وهجهـا فى عينيه حين ينظر اليك ، فهو لاشك سيلاحقك بعبارات الغرام فاضطر إلى قتله

— هل أنت أبله يا مكسيم ؟ ان هؤلاء الطلاب الاحداث من أصلح ما يكون لاداء دور مانعات الصواعق : ولن يفوتنى أن أوجه شكوك ريـنو وغيرته نحو هذا الشاب

فانفجر مكسيم ضاحكا وخرج ، وأطلت الـكونتس لتراه وهو يقود حصانه ويطوح سوطه فى الهواء ، ولم تعد إلا حينما أقفل وراءه الباب الـكبير ، فقال لها زوجها حينئذ :

— أليست هذه من غرائب المصادفات ؟ فضيعة أسرته لاتبعد كثيراً عن ضيعتنا فى « فرتى » ، وجدى وجده كانا زميلين

فأجابت الـكونتس وهى شاردة الذهن :

— يسرنى أن يكون لنا أصدقاء مشتركون

فأجابها إيجين بصوت منخفض :

— أصدقاؤنا المشتركون أكثر عدداً مما تظنين

فحدقت فيه وسألته باهتمام :

— وكيف كان ذلك ؟

— لقد رأيت منذ قليل شخصاً يخرج من عندك . وهذا الشخص جارى المباشر فى الخان الذى أنزل فيه ، وهو الأب جوريو

وما نطق الشاب بهذا الاسم الأخير على هذا النحو حتى أخذت الـكونت رجفة امتعاض وقال للشاب بحدة :

— هلا قلت « السيد جوريو » ياسيدى ؟

وشحب وجه الـكونتس ثم احمر وبدا عليها الضيق ثم تصنعت الهدوء وقالت :

— من رابع المستحيلات أن تعرف انسانا أدنى إلى قلبنا منه

ثم التفتت إلى البيان وقالت كأنما قد استولت عليها نزوة طارئة :

— هل تحب الموسيقى يا سيدى ؟

— أحبها كثيراً

ولـكن حالته كانت قد ساءت لشعوره بأنه قد اقترف خطأ غامضا

— وهل تغنى ؟

— كلا يا سيدتى

— واخسارتاه

وأخذت تدندن أغنية إيطالية

والواقع أن إيجين قد أتى أمراً إدا بذكره الأب جوريو على هـذا النحو : فهو كشخص أدخل على سبيل التكريم الخاص إلى متحف للمصنوعات الدقيقة الثمينة يملكه هاو من كبار الهواة ، ولكنه أسقط على الأرض بحركة غير موفقة صفاً أو صفين من تماثيل كانت رؤوسها محطمة وملصقة إلى أجسادها بعنـاية ، فهو يتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته . ورأى وجه الكونتس جامداً فاتراً ونظراتها معرضة فاعتذر وهم بالانصراف . فقالت له الكونتس :

— ثق أنك ستجد الكونت وستجدنى على استعداد دائماً للترحيب بك كلما خطرت ببالك زيارتنا ...

فحياها إيجين وخرج متبوعا بالكونت الذى أصر على مرافقته إلى غرفة الانتظار ، فلما خرج الشاب قال الكونت للوصيف موريس :

— كلما حضر هذا السيد فلن أكون هنا لا أنا ولا الكونتس

ووجد إيجين المطر ينهمر ، فا رأى عربة كانت عائدة من موكب عرس ولا تزال بها بقية من الزهور حتى ركبهـا وأعطى السائق عنوان الفيكونتس دى بوسيان قريبته ، ليشكرها ويوثق صلته بها ويستفسرها عما غمض عليه من أمر الكونتس دى ريستو

محنـــة عاشقة

ولم يخل الفتى من الزهو حين سمع سائق مركبته يصيح بأعلى صوته :

— افتحوا الأبواب . . .

فتقدم حاجب عليه بزة حمراء مذهبة ففتح البوابة الكبرى على مصراعيها ، وشعر راستنياك بالرضا والعربة تجتازها إلى رحبة القصر ، فتقف به عند السلم . وفيما هو يهبط من العربة طرقت سمعه ضحكات بعض الخدم وهم يتندرون بعربته المعدة لموكب عرس من أعراس سواد الناس ، وأعانه على إدراك مبلغ غرابة عربته ، وجود عربة أخرى مطهمة أنيقة فى الفناء ، هى عربة بعض الزوار ولاريب ، يجرها زوج من الصافنات الجياد ، يعضان النواجذ على اللجم ، ويكادان يخرجان من اهابهما توقدا وقوة ... ولا يمكن أن تساوى المركبة وجوادها أقل من ثلاثين الف فرنك بحال ... فقال الفتى فى نفسه :

— من هنا أيضاً ياترى ؟ لابد أن لدى ابنة عمى « مكسيمها » هى الأخرى !

وعرف فى هذه الساعة أنه يندر أو يستحيل أن يجد بين فاتنات باريس من ليس لها عشيق واحد على الأقل ، فالمنافسة صعبة ومريرة

وصعد الدرج ، وهو يشعر فى حلقه بغصة معترضة ... فلما وصل إلى الباب الزجاجى فتحه خدم عليهم وقار الجد ، فدخل إلى جناح الفيكونتس لأول مرة — فالمرقص أقيم فى البهو الكبير بالطابق الأرضى لافى جناح ربة البيت الخاص بطبيعة الحال — وتسنى له أن يشهد تلك الفخامة العريقة التى تدل على أرفع ذوق وآنق أسلوب فى الحياة

ولما كانت الكونتس لاتستقبل أحداً قبل انتصاف الخامسة ، فانه لو بكر خمس دقائق لما حظى بلقائها ... أما الآن فقداقتاده الوصيف صاعداً به سلماً كبيراً مفروشاً ببساط أحمرسميك إلى جناح الفيكونتس التى كان يجهل عنها وعن حياتها كل شىء . مع أن هـذه الحياة لها قصة شائقة شائعة على جميع الألسن فى مجتمعات باريس

فالفيكونتس عقدت آصرة العشق منذ ثلاث سنين بينها وبين نبيل من أعلى نبلاء البرتغال مكانة وأوسعهم ثروة ، هو الماركيز « داجودا بنتو » . وكان غراما جارفاجامعاً مانعاً . لاقبل للعاشقين بوجود طرف ثالث بينهما أو معهما ، وكانت هـذه الحقيقة من الوضوح بحيث اقتنع بها الفيكونت دى بوسيان نفسه ، فكان قدوة للجميع فى احترام هـذه العلاقة إن طوعا وإذ

كرهاً ، فألف الذين كانوا قد درجوا على زيارة الفيكونتس دى بوسيان فى الساعة الثانية بعد الظهر أن يجدوا الماركيز داجودا بونتو لديها . ولما كانت الفيكونتس لاتستطيع أن تقفل بابهافى وجههم صراحة ، فقد عمدت إلى استقبالهم بفتور ظاهر ، وإلى التزام الصمت التام معهم ، حتى فهم الجميع أن وجودهم يثقل عليها ، فلم تلبث أن الفت نفسها تتمتع بالوحدة التامة فيما بين الثانية والرابعة بعد الظهر

وفى المساء ، عندما كانت تذهب الى الأوبرا أو غيرها من المسارح ،كان يصحبها زوجها كما يصحبها الماركيز .. ولكن زوجها كان من اللباقة بحيث يغادرهما بعد أن يقرهما فى المقصورة ويذهب لقضاء السهرة مع أصحابه

والآن نبتت فى رأس الماركيز فكرة الزواج ، والفتاة التى وقع عليها اختياره هى الآنسة دى روشفيد .. وشاع هذا الأمر فى الأوساط الراقية ، حتى لم يعد يجهله سوى شخص واحد هو الفيكونتس دى بوسيان . . فهى وإن فاتحتها بعض الصديقات فى هذا تلميحاً ، لازالت تعتقد الأمر لغطاً من تدبير حاسداتها وكيدهن ، ولا أساس له من الصحة اطلاقا .. ولكن التجاهل أو الانكار لم يعد مجدياً ، لأن عقد الخطبة سينشر رسمياً فى وقت قريب ويطلب الاذن من الملك بالزواج بصفة نهائية

وكان حضور الماركيز عند صاحبته هذا العصر على نية مصارحتها بالأمر ، ولكن الشاب البرتغالى الوسيم لم يجد فى نفسه القدرة أو الشجاعة على هذه المصارحة ، فليس أشد من توجيه مثل هذا الانذار النهائى ، الى امرأة عاشقة . . بل ان من الرجال من يستعظم مواجهة امرأة حسناء بما يسوؤها أكثر من استعظامه لسيف مرهف يلقاه بعدوه وهو عارى الصدر

وفى اللحظة التى وصل فيها ايجين دى رستنياك الى دار الفيكونتس كان البرتغالى على أحر من الجمر ، تلهفاً على الانصراف ، لارتباطه بموعدمع خطيبته،رجئاً أمرالافضاء بالنبأ الىالفيكونتس اعتماداً على أنه سيبلغها حتما من طريق غير طريقه هو ، أو إذا كان لابد من أن يفضى به اليها هو شخصياً ، فمن الخير آن يكون ذلك فى سطور يخطها ، فالقلم أهون من اللسان فى مثل هذه الأحوال . !

ولما أعلن الوصيف الى الفيكونتس حضور السيد ايجين دى راستنياك ، استولى الفرح على الماركيز داجودا بنتو ، ولم تفت هذه الظاهرة عين الفيكونتس اللماحة ، ذلك أن المرأة العاشقة أرهف حساً بالمخاطر التى تهدد غرامها من احساسها بلذة الغرام نفسه .. وكان ايجين يجهل أن المرء فى باريس لا ينبغى أن يزور كائنا من كان إلا بعد أن يستقصى من أفواه الخلق تاريخ البيت وتاريخ الزوج والزوجة والأبناء ، حتى لا يقع فى أخطاء سخيفة . . وعلى كل حال ، إذا كانت زيارته السابقة قد ثقلت على الكونتس دى رستو ومكسيم دى تراى ، فزيارته هذه

أقعدت الماركيز داجودا من ورطة كان لا يدرى له منها مخرجا .. فقال البرتغالى وهو يبادر الى باب الصالون فى شىء من اللهفة :

— وداعاً الآن إذن . .

فأجابته الفيكونتس وهى ترشقه بنظرها :

— بل الى اللقاء هذه الليلة .. ألسنا ذاهبين الى المسرح ؟

— أظننى لا أستطيع . !

فنهضت الفيكونتس ونادته ليقترب منها ، غير ملقية بالا الى ايجين الذى وقف بجوار الباب يتأمل ما حوله من طنافس ورياش لم يكن ليحلم أنها يمكن ان توجد ، وهو فى الوقت نفسه لا يدرى ماذا يصنع بنفسه فى حضرة هذه السيدة وهى لا تلتفت اليه

وأشارت الفيكونتس بسبابتها الى المركيز اشارة لطيفة ليحتل مقعداً مواجهاً لها .. وكان فى هذه الاشارة من السيطرة العاطفية ما جعل المركيز يترك مقبض الباب ويجلس حيث أشارت فرمقه ايجين بنظرة لا تخلو من حسد وهو يقول فى نفسه :

— هذا إذن هو الرجل صاحب العربة الفارهة والجياد العتاق ! أحتم لزام إذن أن تكون للمرء جبال من الذهب حتى يظفر بنظرة من امرأة باريسية ؟ .

وشعر بشيطان الترف يلدغ قلبه ، وبحمى الطموح والطمع تسرى فى دمه ، وبالظمأ إلى الذهب يغص به حلقه ، فان آله يشكون مرارة الحرمان لكى يوفروا له ذلك العيش الكفاف فى باريس . ولكن المقارنة السريعة بين حالته الراهنة وبين المثل المجسم الذى يشتهيه والحاضر أمامه فى هذه الساعة جعلت القنوط يستولى عليه فبهت وظل قائماً حيث هو

أما الفيكونتس فقالت للبرتغالى وهى تضحك :

— ولماذا لا تستطيع الحضور إلى المسرح ؟

— لدى أعمال ، وسأتعشى على مائدة سفير انجلترا

— استأذن إذن عند حلول الموعد وتعال .

وعندما يضطر الرجل إلى الخداع يلفى نفسه وقد جرته الأكذوبة الأولى إلى سلسلة من الأكاذيب . فقال المركيز ضاحكا :

— أتصرين؟

— طبعاً

— وهذا ما كنت أريد أن أسمعه منك

وتناول يد الفيكونتس فقبلها وانصرف . وعبث ايجين بأصابعه فى شعره وتهيأ لتحية الفيكونتس وقد ظنها فرغت له ، ولكنها انتفضت وأسرعت إلى الردهة ، ثم جرت نحو النافذة وأطلت على المركيز وهو يركب عربته ، وأصاخت السمع فنما إلى أذنها الأمر الذى صدر إلى السائق :

— إلى دار المسيو دى روشفيد

فكانت هذه الكلمات هى البرق اللامع والصاعقة المنقضة على هـذه المرأة التى شعرت فى هذه اللحظة أنها فريسة آلام نفسية لاتقل تبريحا عن حشرجة النزع . فتلك هذه المحنة هى أقصى ما بلى به أهل هذه الطبقة العالية

ودافت الفيكونتس إلى مخدعها فجلست إلى نضد وتناولت صحيفة من الورق جميلة الترقيش ورقت عليها هذه السطور :

« مادمت ستتعشى عند آل روشفيد لافى السفارة البريطانية فنى عنقك لى تفسير هذا السلوك، وأنى فى انتظارك »

وبعد أن أصلحت بضعة حروف خرج بها اختلاج يدها عن نمطها وقعت الرسالة بحرف ك ، اختصاراً لاسمها وهو كلير دى برجولى ، ودقت الجرس فحضر الوصيف للتو فقالت له :

— اذهب ياجاك فى منتصف الساعة الثامنة إلى قصر مسيو دي روشـفيد واطلب مقابلة المركيز داجودا . فاذا كان هناك فسلمه هذا الخطاب ولا تطلب عليه رداً . أما إذا لم تجده هناك فعد إلى بالخطاب

— فى الصالون شخص ينتظر سيدتى الفيكونتس

— آه ! هذا صحيح

ثم دفعت بيدها باب الصالون ودخلت

الدرس الأول

— عفوك يا سيدى ، فقد كان علىّ أن أكتب كلمة صغيرة . أما الآن فأنا رهن اشارتك
ولم تكن تفقه ما تقول للفتى لأن لسان حالها كان يعنى شيئاً آخر مؤداه :

— هو إذن ينوى أن يتزوج الآنسة دى روشفيد . ولكن أهو حر حتى يفعل ذلك ؟
سيتحطم هذا الزواج فى هذه الليلة ، أو ... ولكن لا محل لاحتمال آخر

وأجاب إيجين على عبارتها المنطوقة قائلا :

— يا بنت العم ...

— هيه ؟!

ورشقته بنظرة باردة كالثلج فأدرك مقصودها فبادر إلى اصلاح خطئه وقد تضرج وجهه :

— سيدتى ... اغفرى لى ، فانى فى حاجة إلى حمايتك ، وفى الشعور بقرابتك منى ما يشعرنى بهذه الحماية

فابتسمت الفيكونتس دى بوسيان ، ولكن ابتسامتها كانت عليها إثارة من الحزن وقالت للفتى :

— حسناً يا ابن العم ، فيم عسانى أكون نافعة لك ؟

— وهل ترانى أعلم ؟ فان مجرد قرابتى منك ، ولو من بعيد ، تكفى لتزويدى بثروة طائلة من الأمجاد الاجتماعية ، ثم أنت الشخصية الكبيرة الوحيدة التى أعرفها فى باريس . . . وفى نفسى أن أطلب إليك شرف الاتصال الدائم بك ، فأكون ألزم لك من ظلك ، وأطوع لك من بنانك ، وعلى استعداد دائم للموت فى سبيلك

— وهل أنت مستعد لقتل انسان من أجلى ؟

— بل اثنين

— يا لك من طفل ! أجل ، أنت طفل لا تزال

ومسحت قطرات من الدمع خانتها خلسة واستطردت :

— ... ومثلك يعرف كيف يحب باخلاص !

— آه .. بهذه المناسبة ، لفتت نظرى فى حفلاتك الراقصة سيدة تدعى مدام دى ريستو ، وقد زرتها هذا الصباح

فابتسمت الفيكونتس وقالت :

— لابد إذن أنك سببت لها بزيارتك هذه ضيقاً

— أجل . فأنا كما تعلمين ربنى غر جدير أن أغضب منى جميع الناس إذا لم تسعفينى بمعونتك وإرشاداتك . ويخيل إلىّ أنه من المتعذر أن يجد الانسان فى باريس كلها امرأة شابة جميلة ثرية أنيقة غير مشغولة بغرام يستغرقها ، وأنا كما ترين فى حاجة إلى امرأة هذه صفاتها أتعلم على يديها ما تسمونه علم الحياة . فانى أجد أينما ذهبت شخصاً من طراز مكسيم دى تراى . ولهذا لجأت إليك لأسألك حل لغز أعيانى ولأعرف منك كنه الخطأ الذى ارتكبته . فقد تكلمت هناك عن رجل يدعى الأب ...

وفى هذه اللحظة قطع جاك الوصيف عبارة الفتى معلناً :

— الدوقة دى لا نجيه !

فقامت الفيكونتس لترحب بالدوقة وكانت مصافحتهما دليلا على أخوة لا يمكن أن يكون هناك ما هو أغلى منها أو أخلص ، فقال الفتى فى نفسه :

— يا لهما من صديقتين ! وأحسب هذه الصداقة متيحة لى مرشدتين لا واحدة ، فلهما ولا شك ذوق واحد وعواطف واحدة بحيث يكفى اهتمام احداهما بى كى تهتم بى الأخرى أيضاً

وقالت الفيكونتس لزائرتها فى لهجة معسولة :

— أى غاية ميمونة مباركة أتاحت لى أن أسعد برؤياك الآن يا عزيزتى انطوانيت ؟

— لقد رأيت المركيز داجودابنتو داخلا عند المسيو دى روشفيد فسبق إلى ظنى أننى سأجدك وحدك !

ولم تضطرب الفيكونتس ولم تهتز فيها شعرة ولم يحمر وجهها ، بل أن جبينها بدا كما لو كان قد ازداد اشراقاً على اشراق ، واستطردت الدوقة وهى تنظر إلى إيجين :

— ولو كنت أعلم أننى سأجدك مشغولة ...

فقالت الفيكونتس :

— هذا المسيو ايجين دى راستنياك ، من أبناء عمومتى ، وهل لديك يا عزيزتى أنباء عن الجنرال مونتريفو ؟ لقد قيل لى أمس إنه قد انقطعت أخباره عن المجتمعات ، فهل هو كان لديك اليوم أيضاً ؟

فشعرت الدوقة بالطعنة ، لأنها عاشقة مدلهة بالجنرال الذى شاع هجره لها فى المدة الأخيرة . وتضرج وجهها وهى تجيب :

— لا أظنك يا كلارا تجهلين أن عقد خطبة المركيز على الآنسة دى روشفيد سيعلن غداً رسمياً

فكانت الضربة هذه المرة من الشدة بحيث ترنحت تحتها الفيكونتس

— هذه أراجيف يتشدق بها البلهاء ! فلماذا يهدى الماركيز الى قوم مثل آل روشفيد

اسماً .. أبهى الأسماء وأعرقها فى بلاد البرتغال ، وآل روشفيد لا ترجع نبالتهم إلا إلى أمس القريب ؟

— ولكن برت دى روشفيد سيكون لها دخل يبلغ مائتى ألف فرنك سنوياً

— الماركيز أضخم ثراء من أن يقيم وزناً لهذه الحسبة

— ولكن لا تنسى يا عزيزتى أن الآنسة دى روشفيد ساحرة باهرة الجمال

— آه !

— وهو الليلة سيتعشى على مائدتهم بعد أن تم الاتفاق على جميع الشروط ، وإنه ليدهشنى ألا يكون لديك علم بالأمر

فالتفتت الفيكونتس الى ايجين لتغير مجرى الحديث وقالت :

— هذا الفتى حديث عهد بالمجتمع يا عزيزتى انطوانيت ، فلنرجىء هذا الحديث الى الغد رفقاً به لأنه لا يفقه فيه شيئاً . فاذا كان الغد فان الخافى من الأمر سيعلن ولا يحتاج الى كلام والآن خبرنى يا ابن العم أى خطأ تورطت فيه عند مدام دى ريستو ؟

— إننى يا سيدتى بعد أن نجحت فى كسب مودة الكونت دى ريستو ، خطر لى أن أذكر له وللكونتس أننى أعرف شخصاً كنت رأيته خارجاً من السلم الصغير لقصرهم بعد أن لمحته يقبل الكونتس فى دهليز معتم

فصاحت السيدتان فى نفس واحد :

— ومن هو ؟

— رجل شيخ يعيش فى خان متواضع أنزل فيه أنا ، وهو تمثال للبؤس والهزء ، ويدعوه عارفوه على سبيل الزراية « الأب جوريو » ...

فصاحت به الفيكونتس :

— أيها الطفل الغرير . إن مدام دى ريستو كانت تدعى الآنسة جوريو . . .

وقالت الدوقة :

— فهى ابنة صانع إطرية (شعيرية) جمع ثروة فى غفلة من الزمان ..

وهتف الشاب وقد بدت عليه الدهشة الهائلة :

— أهو أبوها ؟

— نعم . فقد كانت له فتاتان ، هو بهما مفتون مجنون ، مع أنهما أنكرتاه وتنكرتا له . . .

وقالت الفيكونتس للدوقة :

— أليست الأخرى متزوجة من صاحب مصرف له اسم ألمانى ، أظنه البارون دى نوسينجن ؟ وأليس اسمها دلفين ؟ وهى شقراء لها مقصورة فى الأوبرا وفى الأوبرا الايطالية ،

وتضحك بصوت مرتفع جداً لتلفت اليها الأنظار ؟

— يا لذا كرتك المدهشة ! وكيف بالله تشغلين رأسك بهؤلاء القوم ؟

أما الفتى فجعل يردد كالمخاطب نفسه :

— أنكرتا أباهما وتنكرتا له ...

فقالت الفيكونتس :

— أجل ... تنكرتا لهذا الأب الطيب الذى منح كلا منهما أكثر من نصف مليون بائنة ، غير مبق لنفسه سوى عشرة آلاف فرنك إيراداً سنوياً ، ظناً منه أن بنتيه ستكفيانه ذل الحاجة ، وأن له فى بيتيهما بيتين لا واحدا . . . ولكن ما انقضى العامان حتى أوصد دونه البابان !

فترقرق الدمع فى عينى الشاب ، وأنشأت الدوقة تقول :

— هذا محزن حقاً ، وان كان يتكرر كل يوم .. وانى أذكر قصة هذا الرجل فقد كان رئيس حرفته أيام الثورة الكبرى ، فاتصل بالساسة وذوى النفوذ ، وتاجر فى السوق السوداء وجعل يبيع الدقيق بعشرة أضعاف ثمنه .. ولكن هذا الرجل الذى قسا قلبه حتى باع القوت للشعب الجائع بثمن اعتصره من دمائهم ، كانت له في الحياة غاية واحدة ، هى رفع بنتيه الى أعلى الدرجات ، وتوفير أسباب المتعة لهما بأى ثمن .. ولكن ما ان تم الزواج حتى ضاق زوجاهما بهذا الشيخ السوقى ، وأذعنت البنتان فأشارتا اليه ألا يحضر الا فى الأوقات التى لا يزورهما فيها أحد بحجة التمتع بمجالسته على انفراد فلا يفسد الناس عليهما هذا المتاع .. وفهم الرجل فيما اعتقد ولكنه طوى جنبيه على قلبه الدامى وسكت إيثاراً منه لتوفير السعادة العائلية لبنتيه ، فأصبح لا يزورهما إلا متخفياً متوارياً بالجدران وصاعداً من سلم الخدم .. فلما رأى بنتيه قد سكنتا من هذا قرت عينه لأنه أدرك أنه خيراً فعل ، وهكذا بذل هذا الوالد كل شىء لبنتيه ، بذل لهما أحشاءه طعاماً عن طيب خاطر ، ونزل لهما عن كل ثروته بين يوم وليلة ، ثم نزل أخيراً من مجرد الزهو بهما ، وهو يوشك أن ينزل حتى عن رؤيتهما .. !

فقالت الفيكونتس :

— ألا ما أخس الدنيا !

فأجابتها الدوقة وهى تتناول يدها هامة بالانصراف :

— كلا ! ان الدنيا هكذا ، فعلى من يطالبها أن يقبلها على علاتها . . . . !

فلما خرجت الدوقة التفتت الفيكونتس الى الشاب وقالت :

— اسمع يا عزيزى : خذ الدنيا بما هى .. فاذا كنت ترمى الى الغنم والنجاح فانى معينتك عن طيب خاطر .. وسترى حين ينجاب القناع مبلغ الفساد ، فساد النساء وفساد الرجال على السواء .. وكنت على كثرة ما قرأت فى كتاب الحياة جاهلة ببعض صفحاته ، وا ، الا له

عرفت ما لم أكن قد عرفت ! ولنجاح فى الدنيا يكون على قدر التجرد من مزايا الرحمة والنجدة وعرفان الجميل . كن قاسياً وغدا مجرداً من الاخلاص تقفز الى أهدافك قفزاً ، فاذا اختلج قلبك بشعور صادق فحذار ثم حذار أن تطلع على حقيقته مخلوقاً ، لأنه سيكون نقطة الضعف التى تؤتى منها .. فهل جال بذهنك ان التنكر للوالد هو جريمة الفتاتين الكبرى ؟ انك إذن على خطأ كبير فانه لشر من تنكرهما لأبيهما تلك المنافسة الحامية الوطيس الناشبة بينهما الى غاية من التباغض والشحناء.. فالكونت دى ريستو عريق فى النبالة ، وزوجته قدمت رسمياً للملك فحصلت بذلك على اعتراف بها صريح .. أما أختها التربة الحسناء دلفين دى نوسينجين فهى امرأة رجل من رجال المال ، ولكن حزنها لا يعدله حزن ، والغيرة تأكل حشاشتها أكلا ، لأنها مس الوجهة الاجتماعية دون أختها بفراسخ .. فليس زوجها نبيلا معرقا ، وهى لم تدع الى البلاط ولم تقدم الى الملك ، ولا تفتح لها لهذا السبب أبواب الأوساط العليا ، فالأختان لهذا متنابذتان ، تتنكر الواحدة منهن للأخرى تنكرهما لأبيهما .. وان دلفين لعلى استعداد أن تلعق كل الوحل المنتشر على الطريق بين بيتها فى شارع سان لازار وبيتى هذا فى شارع دى جرينل ، فى سبيل أن تحظى بالدخول الى صالونى .. وقد ظنت أن صاحبها دى مارساى سيصل بها الى ما تتمنى ولكن دى مارساى يلهو بها ويتمتع بمحاسنها ولكنه لا يأبه لها فى الحقيقة .. وهذا ، جعلها تلاحقه حتى أملته ، فاذا أنت قدمتها الى وأدخلتها بيتى صارت أمة لك ، وإنى مستعدة من أجل خاطرك أن أستقبلها فى حفلاتى العامة مرة أو مرتين وان اقرأها السلام ، فأنت قد أوصدت فى وجهك باب شقيقتها الكونتس دى ريستو بيدك ، وثق أنك لن تجدها فى بيتها فى أى وقت ذهبت .. فاجعل الأب جوريو يعرفك بابنته الحسناء مدام دلفين ، ومتى حصلت على قلبها بتقديمها الى ، تهافتت منافساتها على انتزاعك منها ، وستلاحظ أن أشد هؤلاء المنافسات حماسة هن أشدهن ارتباطاً بها بأواصر الصداقة .. فالنجاح عند واحدة هو مفتاح النجاح الدائم ، فالباريسيات لا يفتن الا بما فى حوزة الأخريات ، أما الرجل الذى لا تريده امرأة فلن يجد امرأة تريده .. فعليك بالبارونة دلفين ، فانك بهذا تفتح لنفسك أبواب مخادع أجمل الباريسيات ، وتنتقم فى نفس الوقت من أختها أوجع انتقام ، لأنه ليس أشد إغاظة لها من دخول شقيقتها فى الأوساط التى تحسب أنها انفردت بها دونها .. والآن اذهب يا عزيزى استعد لهذه الموقعة الأولى فى سبيل الظفر بمناعم باريس . . !

مفرق الطرق

خرج ايجين من لدن الفيكونتس مستثار الغضب ، ترن فى أذنه كلمتها :

— لقد أوصدت فى وجهك بيدك باب الـكونتس دى ريستو أبد الدهر !

لجعل يقول لنفسه :

— سأذهب إلى دارها ، وإذا اتضح لى أن الفيكونتس دى بوسيان على حق ، فأقسم لأنتقمن من الـكونتس دى ريستو أيما انتقام . ستجدنى فى كل صالون تدخل اليه ، وسأتقن الرماية حتى أقتل لها مكسبها هذا الذى تتدله فيه

ولـكن صوتا من أعماق سريرته هتف به :

— والمال يا صاح ؟ من أين لك به ؟

ولاحت أمام مخيلته تلك الفخامة والأبهة اللتين تعيش فيهما الـكونتس دى ريستو ، فقال لنفسه بمرارة :

— دوتران على حق ، فالثراء هو الفضيلة الوحيدة فى باريس !

وما بلغت به العربة النزل ، حتى صعد إلى حجرته مسرعا ليحضر لسائق العربة عشرة فرنكات ، ثم دخل إلى قاعة المـائدة ليجد فيها النزلاء مجتمعين ، وبادره دوتران بلهجة ساخرة :

— أراك مكتئباً ياسيدى المركيز ...

— لست فى حالة تسمح لى بتحمل دعابات من يروق لهم أن يدعونى « سيدى المركيز » . فكى يكون المرء مركيزاً ، لابد له من مائة ألف فرنك دخلا سنويا ...

— ألعلك ثائر الأعصاب لأنك لم توفق لدى الـكونت دى ريستو ؟..

— لقد أوصدت فى وجهى بابها لأنى قلت لها أن أباها يأكل على مائدتنا ...

فتبادل الطاعمون جميعاً النظرات . وأغضى الأب جوريو قليلا ثم مسح عينه وقال لجاره على المائدة :

— لقد ألقيت طباق تدخينك فى عينى

فصاح ايجين :

— كل من تعرض الأب جوريو بسوء سيتعرض لغضبى ، فالرجل خير منا جميعا

فاعترضه فوتران بقوله :

— ينبغى لك كى تستطيع حماية الأب جوريو أن تحسن استخدام السيف وإصابة الهدف بالمسدس

— وهذا ما سأفعله فعلا

— يبدو أنك قد أعلنت اليوم الحرب على الكافة

— ربما . ولكن لست مسئولا عن تقديم حساب لأى أحد

فبدا الجو مكهربا ، ولاذ الجميع بالصمت . ثم همست مدام فوكير لطالب الشاب في دهشة :

— هو إذن والد كونتس فعلا ؟

— وبارونة أيضا

فعلق طالب الطب بيان شوبه على ذلك بقوله :

— لست أستغرب هـذا ، فقد فحصت رأسه ولم أجد فيها إلا وظيفة واحدة هى وظيفة الأبوة ، فهو « الأب الأبدى »

ولكن ايجين لم يطرب للنكتة لأنه كان مشغولا بمراجعة إرشادات الفيكونتس دى بوسيان وبالتساؤل عن الطريق الذى يحصل منه على المال

وبدأ الطاعمون ينصرفون حتى بقى وحده مع الأب جوريو ، الذى سأله لجأة بصوت مختلج :

— لقد رأيت ابنتى إذن ؟

فأفاق الشاب من شروده وتناول يد الشيخ فتأمله بحنان وأجابه :

— انت رجل شهم كريم النفس . وسنتكلم عن بنتيك فيما بعد

ثم نهض فتوجه إلى حجرته حيث كتب إلى والدته خطابا يتوسل اليهـا فيه أن تتدبر بأية وسيلة إرسال ألف ومائتى فرنك دون علم والده لكى ينقذ بها نفسه وشرف اسمه من ورطة وقع فيها ، ولم ينس أن يلوح لها بالانتحار فى حالة تأخر ورود المبلغ . ثم كتب لكل من أختيه يطلب اليها أن تسمفه بمدخراتها الشخصية الضئيله بعد أن ضرب لها على نغمة الشرف الرفيع الذى ينبغى أن يسلم من الأذى

فلما فرغ من الكتابة شعر بالخجل والندم . فهو يعلم أن حالة الأسرة المالية فى غاية من السوء . ويعلم كذلك أن والدته ستحزن حزنا عميقاً إذا أعجزها أن تدبر هذا المبلغ كله . ثم إذا هى وفقت بعد لأى ، فما الهدف الذى من أجله تستغل عاطفتها النبيلة وتضحياتها الهائلة ؟ فى سبيل الوصول إلى غانية تافهة من غانيات باريس اسمها دلفين دى نوسينجن

وترقرقت فى عينيه قطرات قليلة من الدمع ، هى حبات البخور الأخيرة التى أحرقهـا هذا

الفتى على مذبح الأسرة المقدس . وكان باب غرفته مفتوحا فرآه الأب جوريو على هذه الحالة فدخل عليه وقال له :

— ماذا بك ياسيدي ؟

— آه يا جاري العزيز ! إنى ابن وأخ كما أنك أب . وأنا أدرك شعورك بالقلق على ابنتك الكونتس انستازى ، فهى ألعوبة بين يدى مخلوق يدعى مكسيم دى تراى ، سيودى بسعادتها

فانسحب الأب جوريو وهو يتمتم ألفاظا لم يستطع إيجين أن يتبين كنهها

وفى اليوم التالى ذهب راستينياك فأودع الخطابات صندوق البريد . ونتصفه فنقول أنه تردد أمام الصندوق لحظة قبل أن يلقى فيه بالخطابات وهو يقول لنفسه :

— سأصل ! سأنجح ..

وهى كلمة المقامر ، وكلمة القائد ، وكلمة كل مقدم على مغامرة . وكم أضاعت من رجال يزيدون كثيراً على من وصلت بهم إلى شاطىء الأمان ...

والد وما ولد!

وبعد بضعة أيام توجه إنجين إلى دار مدام دى ريستو ولكنه لم يظفر بطائل ، فقد قيل له منذ أول وهلة أن الكونت والكونتس ليسا فى البيت . وأعاد الكرة بعد ذلك ثلاث مرات ليحصل فى كل مرة على نفس النتيجة مع أنه حرص على التوجه للزيارة فى الساعة التى لا يكون فيها مكسيم عند الكونتس

إذن فالفيكونتس دى بوسيان كانت على حق . وقد أزعجه هذا كثيراً وعكر صفوه فلم يعد هذا الطالب يطلب من العلم شيئاً : فهو يذهب الى المحاضرات ليثبت وجوده عند مناداة اسمه ثم ينطلق اثره ممنياً نفسه بأن فى الوقت متسعاً للاستذكار قبيل موعد الامتحان

وفى هذا الأسبوع زار الفيكونتس دى بوسيان مرتين، ولكنه كان حريصاً على ألا يذهب إليها إلا بعد أن يرى عربة الماركيز داجودا خارجة به من بوابة القصر : فقد استطاعت هذه السيدة أن تطيل حلم غرامها أياماً أخرى إذ نجحت فى إيقاف زواج الماركيز من الآنسة دى روشفيد. ولكن الواقع أن الماركيز وانسباءه الجدد أملوا أن يجدى صلحه مع الفيكونتس فى تعويدها فكرة الزواج فتنتهى بالتسليم بالأمر الواقع

واستطاع إنجين أن يظهر نفسه لديهـا شديد العطف والاخلاص وهى فى حالة تعد أحرج الحالات فى حياة المرأة ، ولكنه اجتهد فى هذه الفترة أيضاً أن يدرس ميدان معركته القادمة دراسة دقيقة فاتصل برجل يدعى « موريه » هو الذى اشترى من جوريو تجارته وعرف منه جميع المعلومات المتعلقة بحياة جوريو !

نعرف أن جوريو كان قبل الثورة الفرنسية عاملا أجيراً فى صناعة الأطرية . وكان رجلا ماهراً مقتصداً حصيفاً دؤوباً فاستطاع أن يشترى من مخدومه مصنعه الصغير واستقر بقرب سوق الغلال ، ثم سعى الى تزعم اتحاد حرفته . وبهذه الصفة استطاع الوصول إلى أصحاب النفوذ فى هذه الفترة المتقلبة الخطرة ، فكانت هذه الخطوة هى السبب الرئيسى لا ثرائه السريع : فى الوقت الذى كان الناس فيه يقتتلون على أبواب الخبازين كان جوريو يحصل على قمح يبيعه بأسعار خيالية . حتى إذا كون رأس مال ضخم خرج من السر إلى العلن وقام بعملياته على نطاق واسع وبالجرأة التى تتيحها لأصحابها رؤوس الأموال الضخمة . ومن حسن حظه أن ثراءه الفاحش لم يعرف أمره الا بعد أن مرت « الفترة الحرجة » ولم تعد الأموال الطائلة تجر الويل على أصحابها

ويبدو أن تجارة الغلال قد استولت على كل ملكات الرجل فهو خبير بأنواعها وطرق حفظها من التلف ومصادر استيرادها بل وكانت له القدرة على التنبؤ بما ستكون عليه المحاصيل من وفرة أو قلة . فهو فى هذه الفنون كلها بحر زاخر لا أول له ولا آخر يكاد من يراه يدير دفة أعماله أو يناقش فيها يحسبه أهلا للتربع فى دست الوزارة . ولكنه متى خرج من هذه الدائرة وغادر عتبة دكانه التى كان يقضى عليها معظم أوقاته متكئاً بكتفه الى عارضة بابها ، انقلب سوقياً جلفاً جاهلا لا قدرة لديه على متابعة استدلال ، ولا حس لديه للذات الفكر والروح ، فهو إذا ذهب إلى المسرح غط فى النوم

أما امرأته ، وهى الابنة الوحيدة لمزارع غنى فكانت لها لديه مكانة تكاد تكون فيها قديسة من قديسات الكنيسة ، فهو يحبها حباً لا حد له لأنه تمشق فيها الرقة والقوة والحساسية والجمال ، وهى صفات هو فى أشد الحاجة إليها . ولكن زواجهما لم يدم سبع سنين ترمل بعدها جوريو فحزن عليها حزناً شديداً وبدأت عواطفه الزوجية تخلى السبيل لعواطف الأبوة نحو بنتيه

وتقدم إليه كثير من التجار ليصهروا إليه طامعين فى تزويجه إحدى بناتهم ولكن الرجل آثر الترمل براً ببنتيه واكتفاء بهما ، وقيل لهذه المناسبة أن الرجل كان قد أقسم لزوجته على الوفاء وأنه حرص على البر بقسمه حتى وهى تحت التراب

وبطبيعة الحال كانت تربية البنتين شيئاً لا منطق فيه ولا ذوق : فهو غنى جداً ولا هم له فى الحياة إلا تدليل البنتين والاستجابة لأى رغبة تخطر لاحداهما بغير تردد أو مناقشة . ولكنه جلب لهما خير الاساتذة واستخدم لهما مرافقة ممتازة علمتهما آداب المجتمع على أحسن وجه . وفيما عدا هذا كانتا تقضيان الوقت فى امتطاء الجياد والتنزه فى العربة الفاخرة التى اشتراها لهما جوريو ، فكأنهما فى الواقع عشيقتا نبيل طاعن فى السن . فيكفى أن تطلب الواحدة منهما أى شىء لتناله فى التو نظير قبلة أو ملاطفة بسيطة . فالرجل كان يحبهما الى درجة التلذذ بالآلام التى كانتا تسببانها له

فلا غرو إذن وقد بلغتا سن الزواج أن يكون لهما الرأى الأول والأخير فى اختيار زوجيهما ، مع التصريح بأن كل واحدة منهما ستنال نصف ثروة أبيها بائنة لها يوم زواجها . فلما أغرم الكونت دى ريستو بجمال انستازى ، وكانت الفتاة مغرمة بالأبهة والارستقراطية ، لهذا لم تتردد فى قبوله والانتقال الى محيط الطبقة الراقية . أما دلفين فكانت تحب المال . لهذا تزوجت من نوسينجن المصرفى الألمانى الأصل . وأما جوريو فبقى صانع إطرية ، ولكن زوجى بنتيه استنكفا من هذا فألحا عليه باعتزال المهنة التى كانت حياته كلها . فأذعن الرجل بعد خمس سنين جمع فيها ثروة تكفل له دخلا سنوياً يصل الى عشرة آلاف فرنك ، ثم أقام فى خان فوكير بعد أن وجد بنتيه تضيقان به ، بل تضيقان بزيارته لهما فى أوقات الاستقبال

وصول المدد

وفى أواخر الأسبوع الأول من شهر ديسمبر تلقى راستينياك خطابين أحدهما من والدته والآخر من شقيقته الكبرى ، وقد أخبرته أمه أنها دبرت المبلغ بمعونة شقيقتها ، فباعت الذى كان البقية الباقية من يسرة الماضى لكى توفر له المبلغ المطلوب . ثم أخذت تنصحه وتوصيه بالجد والاجتهاد لأن أمل الأسرة كلها معقود عليه . فلما تلا الفتى الخطاب خنقته العبرات وتذكر منظر الأب جوريو وهو يصهر أدواته الفضية ويبيعها ليسدد ديون ابنته ، وقال لنفسه :

— هاهى والدتك تفعل فعله بحليها . ولا ريب أن خالتك قد ذرفت دمعاً سخيناً وهى تبيع شيئاً من ايقوناتها الذهبية . فأى حق لك أيها الفتى النزق فى أن تدين انستازى دى ريستو لأنها تمتصر دم أبيها فى سبيل الأبهة أو لتشترى رضى عشيقها ؟

وأحس الفتى أن ناراً محرقة تستعر فى أحشائه ثم فتح الخطاب الآخر فوجد شقيقته تخبره أنها جمعت مدخرها ومدخر أختها ومجموعهما ثلاثمائة وخمسون فرنكا مضحيتين بما تعودتا أن تنزلاه لنفسيهما من ملابس ...

فأحس ايجين أن كنوز الأرض جميعاً لا يمكن أن تساوى هذا الاخلاص البرىء . ولكن فكرة تجمع الف وخمسمائة فرنك فى يده سكنت الآلام التى كان يسببها له ضميره . وبدأ يفكر فى الخياط الذى سيجعله ينافس مكسيم فى الرشاقة والأناقة

وفى هذه اللحظة دخل رسول البريد إلى قاعة المائدة وسأل عن ايجين دى راستنياك ثم قدم اليه كيسين تقيلين وكراسة ليوقع فيها بالاستلام . فرشقه فوتران بنظرة نفاذة وقال :

— ها قد صار لديك ماتأخذ به دروساً خصوصية فى السلاح

وهم الجالسون بالانصراف بعد انتهاء هذا المشهد ، بيد أن ايجين صاح بفوتران :

— أرجو منك الانتظار

— ولماذا ؟

— أريد أن أرد اليك قرضك الصغير

ثم قدم اليه عشرين سنتيما بعد أن أعطى مدام فوكير كراء الخان بضعة أشهر مقدما . فقال له فوتران :

— كأنى بك لاتريد أن تكون مديناً لى بشىء ولو كان تافها

— أجل لا أريد . .

ونهض الفتى حاملا كيسيه ليصعد بهما إلى غرفته ولكن فوتران قال له وهو يتجه نحوه بتحد:

— أتعلم ياسيدى الماركيز المبجل أن ماقلته لى الآن ليس كلاما فى غاية الأدب ..

فأقفل راستينياك الباب وراءه بعد أن خرج متأبطاً فوتران إلى المربع الذى يفصل قاعة المائدة عن المطبخ والذى به باب يفضى إلى الحديقة ، وهناك قال الطالب على مسمع من « سيلفى » الطباخة :

— ياسيد فوتران ، لست مركيزاً ولا أحب أن تدعونى بالماركيز

وقالت الآنسة ميشونو معلقة :

— انهما سيتقاتلان

وصاحت فيكتورين وهى تنهض لتطل على الحديقة :

— هاهما تحت الزيزفون ، ولكن الشاب المسكين على حق .!

فقالت لها مدام كوتير :

— هيا بنا نصعد إلى حجرتنا يا ابنتى فهذه الأمور لاتعنينا فى شىء

فلما أخذتا فى الصعود لقيتهما الطباخة وقالت لهما ان الرجلين يتحدثان تحت الزيزفون . وفى هذه اللحظة ظهر فوتران وقال لصاحبة الخان :

— لا تفزعى ياماما فوكير ، فانى سأجرب مسدسى تحت الزيزفون

فضمت فيكتورين يديها وتوسلت اليه قائلة :

— لماذا تريد ياسيدى أن تقتل المسيو ايجين ؟

فتراجع فوتران إلى الوراء خطوتين وحلق فى الفتاة وصاح :

— ماشاء الله ! وهذه حكاية أخرى ، انه لطيف هذا الشاب الجميل ، أليس كذلك ؟ لعمرى لقد حببت إلى أن أسعى فى اسعادكما ياطفلتى الجميلة !

وكانت مدام فيكتورين قد قبضت على ذرع ربيبتها وجرتها إلى السلم وهى تهمس فى أذنها :

— لله ما أعجب أطوارك اليوم !

وصاحت مدام فوكير :

— لا أريد أن يطلق فى بيتى رصاص . أم تراك تريد ازعاج الجيران واستدعاء البوليس فى هذه الساعة ؟

— على رسلك يا أماه !

ثم لحق براستنياك وتأبط ذراعه بغير تكليف وقال له :

— هل أنت متأكد أنني إذا أثبت لك قدرتي على اصابة نقطة واحدة خمس مرات متوالية على بعد خمس وثلاثين خطوة ، سوف لاتخونك شجاعتك ؟ انك عصبي ويخيل إليّ أنك ستقتل في أول جولة بكل حماقة

— أنت تتراجع إذن ؟

— لاتمتحن صبري . هيا اجلس على هذا المقعد وأعرني سمعك فلدى ما أقوله لك ، فأنت فتى لا أدرى لماذا أحبك . بل لعلني أدري ، وإني مخبرك بغايتي ، فضع مقودك على هـذه المائدة وهدىء روعك حتى تحسن وزن ما أقوله لك ..

وفعل الجبن كما أشار عليه فوتران ، وجلس مصغياً اليه بجميع حواسه

الدرس الثانى

قال فوتران :

— لعلك مشوق أن تعرف من أنا وماذا كنت أصنع أو ماذا أصنع الآن .. ولكن لا شأن لك بهذا ، فقد مارست الأيام وأمتحنتنى الأحداث بخطوب جسام .. حتى لم يعد تاريخى سوى ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران ! وماذا أصنع ؟ ما يروقنى ! وما خليقتى ؟ طيبة القلب مع الطيبين ومع من يميل اليهم قلبى ! حل لهؤلاء كل شىء ، يصفعوننى أو يركلوننى فى عظم ساق ولا أنهاهم .. ولكن اذا توسمت الشر فى انسان فلن ينقذه من يدى أحد .. وليس قتل انسان عسيراً على ، بل هو أهون من قلامة ظفر ، بيد أننى أحب إذا قتلت إنساناً أن أقتله كما ينبغى وبحسب أصول المهنة ، فأنا فنان فى هذا الموضوع بل أنا أحب الجمال وأنشده فى كل شىء والحياة والموت بعد حظوظ واتفاق . وليست المبارزة الا لعبة من ألعاب الحظ والمصادفة ، ثم هب أنك قتلتنى ، وهو على تعذره ليس مستحيلا ، فماذا تراك ستجنى ؟ إنك ستضطر الى مغادرة البلاد والحياة فى المنفى ويبدأ عذاب « بابا وماما » لتدبير النفقات الباهظة فى بلاد الغربة ، « وبابا وماما » ليست حالتهما من اليسر والرخاء بمكان ، فدعنى يا صديقى الصغير أبين لك موقفك الراهن على حقيقته : لابد لك من إحدى خطتين لا ثالث لهما : إما الاستسلام لظروفك القاسية وإما التمرد ومحاولة الوصول الى شىء ذى خطر فى هذه الحياة الدنيا . فهل تعلم كم يلزمك لكى تعيش العيشة التى تطمح اليها ؟ مليون فرنك دفعة واحدة ، وهـذا المليون سأتكفل أنا بتقديمه اليك ! أجل لابد لك من هذا المليون حاضراً .. فلو ذهبت تحصله بالشرف والأمانة وممارسة القانون لما حصلت عليه أبداً ، فلا سبيل إذن أمامك إلا التمرد والاجتراء على القيم والأوضاع منذ الآن .. فأنت الآن فى مفترق الطرق : إما الوصول والتمتع والرفاهية ، وإما البقاء فى الدرك الأسفل من المجتمع خاملا محروما . فماذا تزمع أن تصنع إذا فرغت هذه الألف وخمسمائة فرنك ؟ هل تعرف الطريق للحصول على المال فى هذا البلد ؟ لا طريق سوى العبقرية أو اللصوصية . أما الشرف فلا طائل تحته لرجل عادى . وإذا أردت نصيحتى ، تخير لك أن تكون لصاً من أن تكون عبقريا ! فالعبقرى مكروه ، محسود ، محقود عليه ، لأنه معدن غريب ، ولأنه لا يشارك الناس ولا يشاركونه ! أما اللصوصية فليست معدناً غريباً ، ولا تثير حقداً ولا كراهية ! انها السلاح الذى لا يخيب ، فعليك به ، لأنك إذا لم تستخدمه ، فلن تخطىء

ان تحس بذؤابته فوق رقبتك ..! سترى كيف تنفق زوجـة الموظف الذى مرتبه ستة آلاف عشرة آلاف على زينتها وثيابها وحدها ! سترى موظفين يتقاضى الواحد منهم ألفاو مائتى فرنك فى السنة ويشترى الضياع والمتاع ! وسترى نساء يهدرن عفافهن فى سبيـل الركوب فى عربة « ابن ذوات » ! فاذا كنت تريد الاثراء فلا تقنع بالضربات الصغيرة ، بل عليك بالضربات الـكبيرة .. واعلم أن قانون الأخلاق فى هـذا العصر هو الوصولية ! فالوصول هو الفضيلـة يا صاحبي ، والفشل هو الرذيلة والرجس الأكبر !

— ماذا ترى لى إذن ؟

— أرى لك أن تعمل بالاقتراح الذى سأعرضه عليك الآن ..

— وما هو ؟

لدى فـكرة متسلطة على دماغى ، وهى الحياة فى ضيعة واسعة يعمل فيها مئات العبيد فى الدنيا الجديدة .. فأجمع بضعة ملايين من بيع الثيران والطباق والأخشاب ، وأنا أعيش عيشة السلاطين ، أمرى نافذ وإرادتى مطلقة .. وأنا يا صاحبي شاعر كبير ولـكن قصائدى ليست كلمات منظومة وانما هى عواطف وانفعالات وأعمال ، ولست فى حاجة إلا إلى مائتى ألف فرنك لأنى أريد أن أبتاع بمائتى عبد من الزنوج حتى أوفر لنفسى تلك الحياة القبلية التى أحلم بهـا فالعبيد يا عزيزى محصول بشرى يأتيني كل عام من ذراريهم أفعـل به ما أشاء دون أن يكون لأى وكيل نيابة ان يستأديني عنهم حساباً ! وبرأس مالى هذا من الزنج يتيسر لى فى العشر سنين الأولى ان أجنى ثلاثة ملايين أو أربعة .. حتى إذا أنجحت فى تحقيق ذلك لم يسأل انسان من أنا ؟ فانى سأكون حضرة السيد المحترم « أربعة مليون » من مواطنى الولايات المتحدة ! وسيكون لى من العمر خمسون سنة . وهو عمـر ليس منتهى الشيخوخـة ، ففى مقـدورى أن أتمتع بالحيـاة . !

— ولـكن أنا ، ما علاقتى بهذا المشروع ؟

— وصلنا ! إذا أنا يسرت لك بائنة عروس قيمتها مليون من الفرنكات ، فهل ترضى ان تعطيني منه مائتى ألف فرنك ؟ عمولة عشرون فى المائة ، فهل هـذا كثير ؟ لن يكلفك الأمر بعد أن تكسب بلطفك وشبابك قلب عروسك سوى إظهار القلق وشرود الذهن وانشغـال البال خمسة عشر يوماً ، وذات ليلة ، بعد القيام ببعض الحركات المسرحية تفضى اليها ـ فيما بين قبلتين ـ بأنك مدين بمائتى ألف فرنك « ياحبوبتى » ! وثق ان هذه المهزلة تتكرر كل يوم فى أرق الأوساط ، وما من امرأة تقدر على منع كيس نقودها عن الرجـل الذى استحوذ على قلبها .. وهكـذا تـكون قد بنيت فى ستة أشهر من الزمان صرح سعادتك وسعادة زوجتك الشابة الرقيقة وسعادة بابا فوتران ، فضلا عن سعادة الأسرة التى تتبلغ بالعيش الجاف فى ركن من أركان الريف ! فلا تعجب مما أعرضه عليك ولا مما أطلبه منك ، فبين ستين زواجا موفقاً

يعقد فى باريس سبعة وأربعون أساسها هذه المساومات
— ولـكن ماذا على أنا ان أصنع ؟
— تقريباً لا شيء ! اصغ الى : ان قلب الفتاة الفقيرة الـكسيرة الخاطر مثله كمثل القطعة من الاسفنج ، فهو أشوق ما يكون الى امتصاص الحب والامتلاء به أينما وجده حوله .. فما أيسر أن تطارح الهوى شابة مستوحشة يستولى عليها اليأس والفقر دون أن تدرى أى ثروة يخبئها لها المستقبل . . حتى إذا هبطت الملايين على هذه الفتاة لم تتردد فى طرحها تحت قدميك كأنها الأصداف التى لا قيمة لها وهى تقول : « خذها يا حبيبى فهى كلها لك ! »
— ولـكن أين أجد هذه الفتاة ؟
— إنها بين يديك
— الآنسة فيكتورين ؟
— بعينها
— وكيف ؟
— انها تحبك يا صاحبى منذ الآن
— ولـكنها لا تملك دانقاً ولا درهماً !
— ها قد بلغنا مربط الفرس ، فاعرنى سمعك يتضح لك كل شيء : إن الأب تايفير وغد عتيق ، يقال إنه قتل بعض أصحابه أثناء الثورة ، وهو رجل مستقل الرأى لا يقيم وزناً لقيم الاخلاق أمام رغباته الخاصة . وهو مصرفى واسع الثراء وله ابن وحيد يريد أن يورثه كل ثروته من دون فيكتورين . وهذا الغبن لا يروق لى شخصياً ، فأنا مثل دونكيشوت أنتصر للضعيف من القوى . فاذا كانت ارادة الله العلى أن يسترد منه ولده هذا ، فلن يجد تايفير مناصاً من أخذ ابنته فى أحضانه ، لانه لابد له من وريث على كل حال . وفيكتورين حلوة رقيقة الجانب لن تخطىء أن تستولى على عقل أبيها وقلبه . وسيكون عطفك عليها وحبك لها أيام فقرها قد أثر فى نفسها فتصر على الزواج منك . هذا دورك يا صاحبى وهو كما ترى سهل جميل . أما دورى أنا فأصعب ، لأننى سأمثل العناية الصمدانية ، وسأقوم بمهمة اقناع المولى العلى باسترداد ابن تايفير . فلى صديق من رجال الحرس موثوق به على استعداد للاقدام على أى شيء ولو كان صلب المسيح اذا أنا أمرته به . وسيتولى هـذا الصديق اغراء الشاب تايفير بتحديه أو اهانته . ثم يحل الاشكال ، وفى الظلام ، دون أن يدرى أحد كيف حل ...
— يا للفظاعة ! أتمزح يا مسيو فوتران ؟
— رويدك ! لا تتصنع براءة الطفولة . وفكر فى الأمر ملياً . فهو ليس على الظاهر من بشاعته بأبشع كثيراً من كبائر أخرى سوف تقدم عليها فى مقبل حياتك خلى البال . وإلا فخبرنى هل هذا شر من الاحتيال على غانية تبيعها ماء شبابك يوماً لتحصل منها على المال ؟ ولا تحاول

أن تنكر أنك فكرت فى هذه الوسيلة وفى هـذا العمل لأنه من أين لك أن تقدر النجاح فى المجتمع والوصول الى الجـاه من دون التعويل على بيع هواك للنساء كما تبيع العاهرة هواها ؟ والفضيلة يا صاحبى لا تتجزأ ، فالذى يبيع جسده والذى يهدر الدم البرىء سواء فى بعدهما عن مآزر الفضيلة الناصعة البياض . فليس بين الذى اقترحه عليك وما ستقدم عليه بل تنوى الاقدام عليه كبير فرق . فاما أن تتمسك بمبدأ الشرف والاستقامة ، فعليك اذن أن تلبث حيث أنت ولا تنظر الى ما فوقك ولا تطمع فى تغيير حالتك ، واما ان تطمع الى التمتع بالدنيا ، فخذها اذن كما هى وتوسل إليها بوسائلها ، واعلم أنه ما من جاه طائل فى هذا العالم الا وفى أساس صرحه الشامخ جريمة مستورة نسى الناس وزرها ووضرها بالذى يبهرهم من بذخ حاضرها وترفه

— حسبك يا سيدى حسبك ! لا أرب لى فى سماع المزيد من اغوائك ، فقد أوشكت أن تفتننى عن نفسى وتشككنى فى وجود العاطفة الانسانية ، وهى اليوم حلمى الوحيد وفنى الفريد

— أنت وما تريد أيها الطفل الوسيم . لقد ظننتك أصلب عوداً ، ولكن لى كلمة أخيرة...

وثبت عينيه فى الطالب الشاب ثم استطرد :

— لقد كشفت لك عن سرى

— ان فتى لديه من الصراحة ما يكفى لرفض ما عرضت على قمين أن ينساه جملة وتفصيلا

— أحسنت يا فتى ! ولو غيرى لما اطمأن الى لفظ معسول . ولكنى أميل إليك ، ولهذا لا زلت أضع الأمر بين يديك ، وأمامك خمسة عشر يوماً تتدبر فيها فلعلك تئوب الى الصواب...

واستدبره وانصرف

تمام الأهبة

وجعل الفتى ينظر الى العملاق وهو يبتعد عنه فى هدوء وقد تأبط عصاه ، ثم هز رأسه وقال لنفسه :

— يا له من رجل صعب المراس ! إن ما قاله لى عن وسائل النجاح فى الحياة لا يختلف فى شىء عما قالته لى الفيكونتس دى بوسيان إلا فى الأسلوب وظاهر العبارة ، فهى امرأة متأنقة أما هو فيأبى أن يعرض الحقيقة إلا عارية مجردة . ويحه ! لقد نبش قلبى بمخالب من فولاذ ! ولماذا ــ ليت شعرى ــ أريد أن أتعرف الى البارونة دلفين دي نوسنجين ؟ لقد حرك الرجل بواعثى ودوافعى ، وعرفنى من أمر الخير والشر ما لم تعرفنى به الأسفار الضخام والأساتذة الأعلام

ورمق كيسى النقود اللذين أمامه على النضد فى الحديقة واستطرد :

— . . . وكأنى وقد سرقت أختى هذا المال لأصرفه فى الملذات . فأنا إذن قد جانبت طريق الفضيلة وانتهى الأمر ، وباعدت بينى وبين أهل الخير والبر . . . ولكن . . من ذا من الناس يستمسك بحبل الفضيلة ، وإن كانوا جميعاً يتشدقون بها ؟ ومن طلب الجليل من الأمر لم يأبه أن يخوض اليه الأوحال ... ولكن لا ! وألف لا ! فما أجمل أن تتقدم بالمرء السن فيستعرض حياته أمام عينيه فاذا هى بيضاء من غير سوء ، طاهرة كزنابق الحقل ! سأسلك الطريق الشاق الطويل ، طريق العمل الشريف ، فأنا والحياة مثلنا كمثل خطيبين ، ينبغى أن يعتصما بالطهر ويتجنبا كل ما يشين ، حتى تقوم الحياة بينهما على الاحترام المتبادل والصفاء الكامل . . . رباه ! إن رأسى تدور ، فما أدرى أيان أسلك فى شعاب هذه الحياة التى تبدو لى كالتيه . .

وأخرجته الطباخة سيلفى من صمته ، منبهة إياه إلى حضور الخياط الذى أوصاه أن يصنع له كسى لائقة على آخر طراز . فقام ليجربها ، فلما لبس واحدة منها ونظر الى نفسه فى المرآة قال :

— لقد أصبحت لعمرى لا أقل بهاء عن مكسيم دى تراى ! فانى أبدو وجيهاً شريفاً فى هذا الكساء !

ولم يلبث أن دخل عليه الأب جوريو حجرته وقال له :

— لقد سألتني يا سيدى عن البيوت التى تتردد عليها مدام دى نوسينجين . . .
— أجل . . .
— إنها ستذهب يوم الاثنين المقبل الى الحفلة الراقصة التى يقيمها الماريشال كاريليانو . فاذا كنت ذاهباً اليها ، فسيتسنى لك أن تخبرنى كيف بدت بنتاى فيها . . .
— ولكن كيف عرفت هذا أيها الوالد العزيز ؟
وأخذ بيد الشيخ فأجلسه قرب المدفأة ، فأجابه فى سرور ظاهر :
— أفضت إلى به وصيفتها ، فأنا أعرف جميع أخبار بنتىّ من وصيفتيهما « تيريز » و « كونستانس » .
فكأن الرجل الشيخ عاشق مدله لم ينل الحظوة ولكنه يتعلق بأخبار الحبيبة ويتسقطها من أفواه الخدم ! ثم استطرد الشيخ :
— إنى أغبطك ، فانك أنت ستراهما . . .
— لا أدرى . . . سأذهب على كل حال الى الفيكونتس وأرجوها فى تقديمى الى الماريشالة . . .
وشعر الشاب بالسرور يداخله لفكرة مثوله بين يدى الفيكونتس فى زيه القشيب الأنيق ، فأنساه هذا الزهو كل ما كان يجيش فى حناياه من ندم وتأنيب ضمير ، ونسى عواطفه الطاهرة التى كانت تتحمس للفضيلة العذراء ! فما إن رأى نفسه أنيقاً وجيهاً حتى هانت عليه كل هذه النظريات ، ورأى متاع الحياة وغرورها كفؤاً للخطيئة والرذيلة . ألا ما أضعف الانسان !
وكان الجاران ، الشاب ايجين والشيخ جوريو ، قد تقاربا كثيراً فى الأيام القليلة الماضية ، لأن الشيخ قد أدرك بحاسة مجهولة لديه كحاسة الكلب حين يعرف صديقه من عدوه بغير تفكير . ولكن هذا التقارب لم يصل بهما بعد الى مرتبة التكاشف بالخفايا ومكنونات الطوايا . فلم يحدثه الشيخ عن بنتيه إلا فيما يتصل بما ورد على لسان الشاب على المائدة عقب عودته من زيارة الكونتس دى ريستو . فقد زار الشيخ الشاب فى اليوم التالى وقال له :
— من أين أتاك يا سيدى العزيز أن الكونتس دى ريستو أعرضت عنك أو غضبت عليك لأنك ذكرت أمامها اسمى ؟ إن ابنتى تحبانى كل الحب ، وانى بأبوتهما جد سعيد. ولكن صهري هما اللذان أساءا معاملتى وأشاحا عنى وصداً صدوداً ، فلم أشأ أن أعكر صفو حياة ابنتى، وفضلت التضحية من جانبى ، ورضيت ألا أراهما الا خلسة . وهذا الاختلاس للذة الحلال فيه من المتاع ما لا يخطر ببال الآباء الذين يرون بناتهم جهاراً . أما أنا فليس لى إلى ذلك سبيل . أتدرى ماذا أصنع اذن؟ إذا كان الجو صحواً ذهبت إلى « الشانزيليزيه » ـ بعد أن أكون قد عرفت من وصيفتيهما أنهما ستذهبان الى هناك ـ وأنتظر فى الطريق لأراهما حين تمران فى عربتيهما المطهمتين ، وزينتهما الباهرة ، وأسعد بابتسامة تلقيانها إلى ، فتضىء حياتى كأن شعاعاً من

الشمس قد دخل الى قلبي المظلم ! ثم أنتظر مرورهما مرة أخرى فى طريق العودة ، لأسعد برؤيتهما مرة أخرى وقد تورد وجهاهما وأجدت عليهما النزهة فى الهواء الطلق. ويداخلنى الزهو والاغتباط حين أسمع من حولى عبارات الاعجاب بهما وبجمالهما الفتان ! فهما لحمى ودمى ، ومن حبهما أحب الخيل التى تحملهما أو تقلهما ، وأتمنى لو كنت الكلب الصغير الذى تحملانه فوق ركبتيهما فلم تعد لى حياة إلا حياتهما ، ولا متعة لى إلا أن أراهما تتمتعان ... فكل امرىء له طريقته فى الحب ، وتلك طريقتى ، ولا ضير منهـا على مخلوق ، فلماذا لا يدعنى الناس آمناً فى سربى ؟ فهل أفتأت على أحد بتسللى تحت جنح الليل كى أرى ابنتى فى نجوة من الناس ، وهما خارجتان لحضور حفلة راقصة أو للذهاب الى الأوبرا ؟ ويا لهـا من مصيبة إذا وصلت متأخراً وقيل لى « إن السيدة قد خرجت » .. فقد ظللت مرة فى الطريق الى الثالثة صباحاً لكى أرى « نازى » حين تعود من السهرة ، لأنى لم أكن قد رأيتها منذ يومين !.. ولـكن إياك أن تظن بهما الجحود ، فهما تريدان اغراقي بالهدايا والألطاف ، ولـكننى أنا الذى أرفض، وأقول لهما : « وفرا نقودكما . فما بى حاجة الى هذه الأشياء فى هذه السن . لست بحاجة الى شىء » .. وهـذا حق ! فما أنا حتى يضيع المال فى حوائجى ؟ ما أنا إلا جيفة لا قيمة لها فى ذاتها ، لأن روحى موزعة على جسدى ابنتىّ هاتين !... وأرجو إذا لقيت مدام دى نوسنجين أن تصارحنى أى ابنتى أبهى جمالا وأبدع حسناً ... »

وإذ رأى الشاب يتأهب للخروج للنزهة فى حدائق التويلرى حتى يحين موعد الفيكونتس دى بوسيان ، استأذن فى الانصراف وهو لا يزال يتمتم حديثاً غامضاً عن بنتيه

□

خرج الفتى الى التويلرى بقصد النزهة وقطع الوقت ، فكانت هذه النزهة هى القاضية على البقية الباقية من صوت الضمير فقد خنقته خنقاً ، فمات دون أن تند عنه نأمة ! ذلك أن نفراً من السيدات المتنزهات هناك التفتن إليه معجبات ، لأنه كان غض الاهاب ، أنيق الثياب .. فاستشعر من ذلك زهواً كاد يخرج به عن طوره ، ولم يعد لشقيقتيه ذكر فى ذهنه المنتشى بهذا النصر السهل !

فلما قاربت الساعة الخامسة ، توجه الى قصر الفيكونتس دى بوسيان ، فوجد فى انتظاره ضربة من تلك الضربات التى تحطم الآمال وتذل الـكبرياء . فان الفيكونتس التى كان يجدها على الدوام باسمة الثغر ، مهذبة ، حفية ، لقيته فى هذه المرة بجفاء وضيق ، وقالت له فى خشونة سافرة :

— يستحيل على أن أجلس إليك يا مسيو دى راستنياك ، فى هذه الساعة على الأقل ، فانى مشغولة ...

وكان هذا حرياً أن يرده عن بابها ، هذه الساعة على الأقل . ولـكنه كان قد تعلق بالنجاح

وبدأ فى سلوك طريق « الوصول » ، فنهض من كبريائه ، لأنه كان متلهفاً على الذهاب الى حفلة دوقة كاربليانو بأى شكل ... فبلع الاهانة وقال للفيكونتس :

— سيدتى ، لولا أن الأمر يتعلق بموضوع عاجل هام ، لما أتيت إليك وأثقلت عليك... فاغفرى لى ، واسمحى لى بفرصة أخرى ، أراك فيها ... فانى مستعد للانتظار ...

فخفت حدة الفيكونتس شيئاً ما ، وقالت له :

— ليكن . تعال لتتعشى على مائدتى هذه الليلة ...

فلما كان المساء وجاء الى قصرها وجدها قد استردت اشراقها ورقتها ، فقادته الى قاعة المائدة حيث كان الفيكونت فى انتظارهما ! وكانت المائدة وأدواتها على مبلغ من الفخامة والترف لم يكن يخطر للفتى ببال ... فالعصر عصر الأناقة فى الطعام ... هذا الى أن الفيكونت مشهود له بأن لذته الوحيدة فى الدنيا هى الأكل ! فائدتها المزيتان، مزية الكيف ومزية الكم فى وقت واحد...

وقالت الفيكونتس لزوجها أثناء الطعام :

— هل ستأتى معى الليلة إلى الأوبرا الايطالية ؟

— ليس أحب إلى نفسى من هذا كما تعلمين يا عزيزتى ، ولكنى للأسف مرتبط بموعد آخر ... فهل « داجودا » ليس معك الليلة ؟

— كلا ...

— إذن خذى المسيو دى راستنياك معك ...

فنظرت الفيكونتس الى إيجين وابتسمت ...

فى الاوبرا الايطالية

وأقلته .. الفيكونتس عربة أنيقة سريعة إلى مسرح الأوبرا الايطالية . وما دخل وراءها إلى مقصورة من المقصورات الأمامية حتى وجد نفسه هدفا للمناظير المكبرة التى سلطت عليه من كل صوب ، فخيل اليه أنه فى مملكة من الممالك المسحورة

وقالت له الفيكونتس :

— انظر هاهى مدام دى نوسنجين فى مقصورتها التى تبعد عنا بثلاث مقاصير ، أما أختها الكونتس دى ريستو فنى الجهة الأخرى وبصحبتها مكسيم دى تراى

والواقع أن الفيكونتس كانت تذرع القاعة بنظارها مظهرة عدم الالتفات إلى البارونة دى نوسنجين ، مع أنها لم تكن غافلة عن أى حركة من حركاتها . وأما الفتى إيجين دى راستنياك لم تكن له عينان إلا لتأملها والتحديق فى محاسنها ، وقد انشرح صدر البارونة لهذا الاهتمام لدى بديه نحوها ابن عم الفيكونتس دى بوسيان الشاب الوسيم ذو الحسب . بيد أن الفيكونتس نبهته بقولها :

— إذا ظللت تركز فيها أنظارك على هذا النحو أثرت فضيحة وافتضا . وإن توفق فى المجتمع إذا كنت عازما على أن تلقى نفسك على الناس إلقاء كأنك تسقط فوقهم من حالق

— يابنت العم . لقد بذلت لى العون وأحطتنى برعايتك وحمايتك حتى الآن ، فهلا أتممت صنيعك لأننى أرى قلبى قد شغل هذه المرة

— بهذه المرأة ؟

— أجل ، والدوقة كارليانو ستقيم حفلا راقصاً ستحضره البارونة دى نوسنجين ، فأكون شاكراً لو قدمتنى للدوقة كى تدعونى إلى حفلتها الراقصة ، فيتسنى لى أن أقابل البارونة هناك وأضرب ضربتى الأولى

— لكن ، فيظهر أنك ستوفق فى هواك . فهذا دى مارساى صاحب البارونة مشغول عنها فى مقصورة الأميرة جلاتيون . فالبارونة تعانى فى هذه اللحظة نيران الغيرة . وليست هناك لحظة أصلح من هذه اللحظة للتقرب من امرأة ، ولاسيما إذا كانت امرأة رجل من رجال المال ، فهاتيك النساء جميعاً يحببن الانتقام حباً جما

— وماذا كنت تفعلين لو كنت فى مكانها ؟

— أتألم في صمت

— وفي هذه اللحظة دخل المقصورة الماركيز داجودا فأشرق وجه الفيكونتس اشراقا دل ايجين على أنها تحب الماركيز حباً حقيقياً ليس من قبيل خلاعة الباريسيات ومجونهن الشائع . وتخلى الشاب للماركيز عن مقعده ، فابتسمت له الفيكونتس شاكرة هذا الصنيع الذى أملته اللباقة . ثم قالت للماركيز عند انتهاء الفصل الأول :

— أظنك تعرف البارونة دى نوسنجين معرفة تسمح لك بتقديم المسيو دى راستنياك اليها

— طبعاً . . وستسر كثيراً ولا شك بمعرفة الشيفاليه دى راستنياك

ونهض البرتغالى الجميل فتأبط ذراع الشاب وصحبه إلى مقصورة البارونة ، فقال لها :

— لى عظيم الشرف ياسيدتى البارونة أن أقدم اليك الشيفاليه ايجين دى راستنياك ، من أبناء عمومة الفيكونتس دى بوسيان ، فقد كان تأثيرك فيه عظيما بحيث حملنى على اتمام أسباب السعادة له بتقريبه من موضع تقديسه

فابتسمت البارونة وأشارت إلى الشاب بالجلوس فى مقعد زوجها الذى لم يكن حاضراً تلك اللحظة ثم قالت له بلطف :

— لا أجد لدى الجرأة ياسيدى كى أطلب اليك البقاء معى ، فان الرجل الذى يسعده الحظ بقرب الفيكونتس دى بوسيان لايرضى عن قربها بديلا

فهمس لها الشاب ضاحكا :

— ولكن يبدو لى ياسيدتى أننى إذا أردت أن أرضى ابنة عمى ، فيحسن بى أن أبقى بجوارك . فقبل وصول الماركيز كنا نتحدث عنك وعن شخصيتك الممتازة

— استبقى معى حقاً يا سيدى ؟ إن هذا يسرنى كثيراً لأن أختى الكونتس دى ريستو أطرتك لدى كثيراً حتى أصبحت فى أشد الشوق للتعرف بك

— لقد خدعتك إذن ، فهى قد حرمت على بيتها

— وكيف كان ذلك ؟

— سأروى لك السبب ، واستميحك العفو ان أفضى اليك بهذا السر . فأنا جار والدك الفاضل فى الخان الذى يقيم فيه . وكنت أجهل أن الكونتس دى ريستو ابنته . فبدر منى دون قصد اشارة اليه بحسن نية أغضبت شقيقتك وزوجها . وقد عجبت ابنة عمى الفيكونتس والدوقة دى لانجيه من العقوق . وسمعت بهذه المناسبة من الفيكونتس مقارنة طريفة بينك وبين شقيقتك علمت منها مبلغ حبك وبرك بهذا الوالد الفاضل . ولست أدرى كيف لايحب ، ولاسيا منك ، فهو يعبدك حباً

— أشكرك كثيراً ياسيدى ، وأحسب أننا سنكون من خيرة الأصدقاء

وشرعت البارونة تسفه مسلك شقيقتها نحو والدها ، وكيف أنها قست شخصياً آلاما جسيمة

حين حملها زوجها البارون على عدم استقبال والدها إلا فى الصباح

— انك ياسيدتى مثل الطيبة الملائكية ، وقد أعجبت بك قبل أراك لما سمعت به من فيض المحبة البنوية . ولكن لم أكن أتصور أبداً أن يبز جمالك الباهر صفات خلقك النبيل وقلبك الكريم . حتى إذا دخلت الليلة هذا المسرح ووقع نظرى عليك لم أستطع أن أحوله عنك ! فاضطرت الفيكونتس إلى لفت نظرى وصرفى عن التحديق فيك على هـذا النحو . ولكنها لاتدرى إلى أى حد تجتذب محاسنك الأنظار . فهاتان العينان الساحرتان ، وهاتان الشفتان القرمزيتان ، وهذه البشرة الناصعة البياض ، وهذه الفتنة التى تشع من كيانك كله ... عفوك! إنى أهذى ، اعلم هذا ، ولكن دعينى بربك أمضى فى الهذيان ، لأنه يخفف بعض مابى من الهيمان

وليس فى الوجود ماينشرح له صدر المرأة مثل سماعها عبارات الثناء . فأشد النساء ورعا وأعظمهن تقوى لاتنكره هذا الحديث وإن حرم عليها أن تستجيب له . فغير غريب أن تشجع البارونة الشاب إيجبن بابتساماتهـا ، وهى تختلس النظر فى الحين بعد الحين إلى حيث يجلس دى مارساى فى مقصورة الأميرة جلانيون — وهكذا بقى الشاب فى حضرتها يتلو عليها آياته ويطلق البخور بين يديها إلى أن حضر زوجها البارون ليصحبها إلى البيت

وما درى الشاب المسكين أن البارونة كانت شاردة الذهن وهى تتظاهر بالاصغاء اليه ، فقد كانت تنتظر من دى مارساى خطاباً من تلك الخطابات التى تمزق القلب وتفتت الأكباد . ولكن الفتى الريفى ظن أنه وجد حظوة لدى البارونة حقاً وصدقا ، فعاد إلى الفيكونتس متهلل الأسارير ، فصحبها إلى عربتها ، ثم مضى إلى الخان وكأنه يطير فى الهواء من فرط السرور والاستبشار

أشجان والد

وما بلغ الفتى الخان حتى صعد السلم وثباً ثم طرق باب حجرة الأب جوريو طرقاً شديداً ، وما دخل عليه حتى ابتدره بقوله :

— لقد رأيت مدام دلفين ياجارى العزيز

— أين ؟

— فى الأوبرا الايطالية

— وهل تمتعت بسهرتها ؟ حدثنى عنها

ورقد الرجل فى فراشه ، وسنحت للفتى الفرصة لكى يرى الجحر الذى يعيش فيه والد تلك التى بهرته منذ قليل بترفها وبذخ ثيابها وزينتها . فلم تكن على النوافذ ستائر ، وآثار الرطوبة تبدو واضحة فوق الورق البالى الملصق فوق الجدران ، والفراش الذى يرقد فيه الشيخ بعيد عن توفير الراحة لجسده الواهن ، والأغطية الفليلة عبثت بها يد البلى . فامتلأ الفتى امتعاضاً واشفاقاً على الرجل . ولكن الشيخ لم يلحظ لحسن الحظ ما ارتسم على وجهه ، لأنه كان عارفاً خواطره التى تحوم دائماً حول بنتيه ، فسأل ايجين فى طيبة تقرب من البلاهة :

— أيهما وجدتها أقرب إلى القلب ، مدام ريستو أم مدام دى نوسنجن ؟

— بل أفضل مدام دلفين لأنها تحبك حباً جما

فأخرج الشيخ ذراعه من تحت الغطاء وضغط على يد الشاب بحرارة وهو يقول له فى تأثر بالغ :

— شكراً لك . وماذا قلت لك عنى ؟

فأعاد عليه الفتى ماقالته ابنته عنه مزوقاً منمقاً كى يجبر خاطره الكسير ، والشيخ مصغ اليه كأنه يستمع إلى وحى مقدس ، فلما فرغ الفتى قال :

— أجل ، ان هذه الطفلة العزيزة تحبنى كثيراً . ولكن لاتصدق ماقالته لك فى حق أختها انستازى . فالأختان بينهما منافسة شديدة أيهما تحبنى أكثر من الأخرى . وأنا أعلم عن يقين أن مدام دى ريستو تحبنى حباً شديداً ، فأنا أبوهما وأعرف قلبيهما ، ولو كان لهما زوجان من ذوى القلوب الكريمة والسرائر الطيبة لكنت أسعد خلق الله . ولكن السعادة الكاملة لم تكتب لأحد فى هذه الحياة الدنيا . . . فقد كان يكفينى من الدنيا أن أعيش فى جوارهما ، لا لشىء



« وقال الفتى للأب جوريو : كيف تعيش فى مثل هذا المكان ؟ »

إلا لأراهما تغدوان وتروحان ، فأسمع صوتهما وأحس بأنس قربهما ... ولكن خبرني ، هل كانتا في زينة طيبة ؟

— أجل ... ولكن خبرني أنت ياسيد جوريو ، كيف تكون لك بنتان على هذا القدر من الغنى ، وتعيش أنت في مثل هذا المكان ؟..

— وما حاجتي إلى أكثر من هذا ؟ ان حياتي قد اختزلت في هاتين البنتين . فإذا نعمتا بالحياة ، فانى ناعم البال ، وإذا كانت لهما بسط من حرير ، فما يضيرني أن تكون أرضي عارية ليس فوقها بساط . وإذا كانت ملابسهما من حرير ودمقس واستبرق ، فما يضيرني ماذا أكتسى وأين أضع رأسي ! فانى وايم الحق لا أشعر بالبرد إذا هما نعمتا بالدفء ، ولا سبيل للأحزان الى نفسي ماشعرتا بالبشر . . . ولكنك لاتدرك معنى ما أقوله لك الآن إلا حين تغدو أبا ، فحينئذ ستعرف قيمة التافه من بغام بنيك ، وسيستبد بك الزهو لأنهم خرجوا من صلبك ! وستحس أن دمك يتحرك في عروقهم ، وأن الدم الذي في عروقك يضطرب بانفعالاتهم ، وأن أعصابك تتحرك بحركات جوارحهم وخطو أقدامهم ... فنظرة حزن أو كآبة من احدى هاتين البنتين تكفى لتجميد دمي ! فكيف تأسى على حياتي ، وأنا رجل أحيي بهذا الحب الأبوى ثلاثة حيوات لاواحدة وكفى ! أجل ياصديق ، انى لا أتمنى شيئاً سوي سعادة بنتي . فدلفين هذه إذا وجدت رجلا يسعدها ويشعرها بالنشوة التي تحسها المرأة إذا شعرت أنها محبوبة ومعشوقة باخلاص ... أقول أنني مستعد أن أمسح بنفسي حذاء هذا الرجل . . وأن أكون له بمثابة الخادم من السيد ! ولكن وا أسفاه ! فقد علمت من وصيفتها أن هذا السيد دى مرساى إن هو إلا كلب حقير ، فهو يسومها عذاب الهجر ، حتى لقد قام برأسي أكثر من مرة أن ألوى عنقه فأخنقه بيدى ! ياله من بهيم : أمثل هذه الجوهرة الحلوة بين النساء لاتعبد حباً ! إن صوتها كغناء البلبل ، وقدها كأنموذج الفنان الكامل ... ولست أدرى ماذا قام برأسها حتى رضيت بهذا الألزاسي المتكبر دى نوسنجين بعلا لها من دون الرجال جميعاً .. لقد كان يلزم لكلتيهما زوجان طيبان جيلان لطيفا المعشر ... ولكنهما تصرفتا على هواهما . . .

▭

وكان الأب جوريو في « مرافعته » هذه رائعاً في بلاغته ، لأنها بلاغة الحديث الصادر من القلب نصاً . فما أقدر العواطف الصادقة على احداث المعجزات ، فهذا الرجل النذر الكلام ، الثقيل اللسان ، قد جعلت منه عاطفته الكبيرة إنسانا رائعاً وخطيباً مفوهاً ، فانطلق لسانه ، وصار في نبرة صوته غنى ، وأشرق وجهه وخلقت له شخصية قوية من العدم ... فأخذ الفتى بما رأى منه وما سمع ، فقال له :

— أظنه لايسوؤك أن تعلم أن مدام دلفين ستقطع صلتها بهذا السيد دى مرساى ، لأنه تركها ليتصل بالأميرة جالاتيون ... وأنني وقعت منذ الليلة في هوى مدام دلفين ... وأنني قد

لقيت قبولا لديها ، وأنها دعتني لزيارتها عصر السبت ، بعد غد ...

— لن تجد أحب لك مني ياسيدي إذا حظيت برضاها عنك ! فأنت طيب السريرة ، ولا أحسبك ستسومها العذاب . أما إذا أسأت اليها فاني قاتلك !.. آه ! أراني أهرف، فعفواً... وماذا قالت لك عني ؟..

— حملتني اليك قبلة ...

— يارعاك الله ... طابت ليلتك ياجاري العزيز ، فالبرد في حجرتي شديد ، وأراني أبقيتك أكثر مما ينبغي ... فرافقتك السلامة ... وجزاك الله عني خيراً ، فقد أسعدتني بهذا الحديث عن أحب خلق الله إلى قلبي ... ولن أنسى لك هذا الفضل ، بل اني سأسعد كلما وقع نظري عليك ، لأنك تحمل لي شيئاً من ريح ابنتي العطر !

... وآوى الفتى إلى فراشه ، وهو يقول في نفسه :

— يا للرجل المسكين ! إن حالته تفتت الأكباد وتلين القلوب التي قدت من حجر صلد ... وابنته التي يعبدها لم تذكره لي بكلمة !

والواقع أن الأب جوريو قد سعد فعلا بهذا الحديث ، ولا سيما لأنه اكتشف في جاره الشاب صديقاً حقيقياً يكاشفه بنجوى نفسه ويفهم عنه فقد نشأت بينهما تلك الصلة الوحيدة التي يمكن أن تصل هذا الشيخ بأي إنسان على وجه البسيطة : وتلك الصلة هي الاهتمام المشترك باحدى بنتيه

ويقولون ان القلوب تحسن ضرباً من الحساب والاستدلال لا يحسنه منطق العقول ، وإنها لا تخطيء أبداً في معرفة أهدافها ، وهذا قول يطابق الواقع تمام المطابقة .. فهذا هو الأب جوريو وقد حرم نعمة قرب بنتيه يحدس دون تفكير فيصيب الحدس ان جاره الشاب إذا توثقت علاقات الهوى بينه وبين دلفين ، فان ذلك سيؤدي بطبيعة الحال الى زيادة حظوة الوالد لدى ابنته ويوثق اتصاله بها ..

□

وفي الصباح التالي وقد جلس الجميع الى مائدة الافطار جعل الأب جوريو يلقي على جاره الشاب نظرات تفيض بالحنان والتعلق ، حتى لقد لاحظ النزلاء أن القناع الجامد قد زال عن وجه الشيخ الذي لم يكن يلقي الى أحد منهم بالا

أما الفتى فانه كان قد جال بفكره قبل النوم في الميادين الشتى التي تنبسط أمامه ، وفكر فيها فكر في فيكتورين تايفير وبائنتها الضخمة التي حدثه عنها فوتران ، وفي هذا الصباح التقت نظراته بنظرات الفتاة صدفة ، وشعرت الفتاة بالاعجاب بأناقة الفتى في زيه الجديد القشيب .. وأدرك الفتى من نظرتها أنه غير بعيد عن قلبها ولا عن أحلام خلوتها ، وأحس كأن منادياً يناديه من فج عميق :

— ثمانمائة ألف فرنك يا هذا بعد عمولة فوتران !

ولـكنه أصم أذنيه عن هذا النداء وعاد الى التفـكير فى ذكريات الأمس الجميلة وما حسب أنه قد أصابه من حظوة فى عينى البارونة دلفين دى نوسنجين فقال لوالدها الذى كان بجواره على المائدة :

— كانوا يقدمون بالأمس فى الأوبرا الايطالية رواية حلاق اشبيليه لروسين . ولم أسمع وايم الحق أعذب من هذه الموسيقى . الا إن من لديه مقصورة دائمة فى الأوبرا الايطالية لسعيد

فتلقف الأب جوريو هذه الكلمة كما يتلقف الـكلب المدرب إشارة من مولاه .. ثم استطرد الشاب هامساً فى أذن الشيخ :

— ولعلك ستلقى مدام دى نوسنجين قريباً ، فثق أنها ستلقاك بذراعين مفتوحتين .. لـكي تعرف منك المزيد عن شخصى .. وقد نما الى أنه يهمها كثيراً أن تدعى الى بيت بنت عمى الفيكونتس دي بوسيان ، فلا تنس أن تخبرها أن حبها عندى كفء لإنالتها هذه الأمنية

بداية حب

وخرج ايجين من الخان بعد الافطار مباشرة ، فجعل يصرف الوقت فى النزهة والتسكع،لأنه كان يضيق بهذا المنزل الكئيب ، ولأنه كان مكفوفا عن الاستقرار بتلك الحمى المستمرة مداخله ، والتى يعرفها تمام المعرفة احداث الشبان حين تتلألأ أمام مخيلتهم الفتنة أحلام خلابة فلما عاد إلى الخان وجد الأب جوريو فى انتظاره ، فما رآه داخلا حتى قال له وهو متهلل الوجه :

— هاك خطابا منها ... يا للحظ الجميل !

وفض ايجين الخطاب ، وقرأ السطور التالية :

« سيدى

« قال لى والدى أنك تحب الموسيقى الايطالية . وإنه ليسعدنى أن تشرفنى بقبول مقعد فى مقصورتى ، وستقدم يوم السبت أوبرا جميلة ، وإنى واثقة أنك سوف لا ترفض هذه الدعوة . والبارون دى نوسنجين ينضم إلى فى التوجه اليك بالرجاء لتناول العشاء تلك الليلة . فاذا تفضلت بالقبول أعفيته من الواجب الزوجى الثقيل الذى يحتم عليه مصاحبتى إلى الأوبرا . . . وتقبل تحياتى

دلفين دى نوسنجين »

فقال الفتى فى نفسه :

— ما من امرأة تلقى نفسها هكذا على شاب من أول وهلة. فلا ريب أنها ترمى إلى استغلالى فى إثارة غيرة صاحبها الهاجر دى مرساى كى تسترده . . . فهى المكايدة والانتقام لا الحب والهيام ...

وقطع الأب جوريو عليه حبل التفكير بسؤاله :

— فيم تفكر ؟

وكان قد غاب عن علم الفتى مبلغ ما للمظاهر من سلطان على نساء المجتمع فى باريس ، حتى أن زوجة رجل لايعدو أن يكون من رجال المصارف تطيب نفساً بالاقدام على أى تضحية فى سبيل الوصول إلى شرف التردد على قصور الأشراف المعروفين فى ضاحية سان جيرمان . ولم يجد الفتى مانعاً من الاستفادة من الظرف المواتى ، فأجاب على سؤال الأب جوريو بقوله :

— طبعاً سأذهب ...

وهكذا ساقه حب الاستطلاع إلى دار مدام دى نوسنجين ، فى حين أنها لو كانت تجاهلته

أو ازدرته لكانت العاطفة هي باعثه على هذه الزيارة وليس مجرد حب الاستطلاع ، ومع ذلك فانه لم يخل من تشوق ولهفة على الذهاب فى الموعد المضروب فى اليوم التالى

ووصل راستنياك إلى شارع سان لازار ، فوجد دار البارون واحدة من تلك الدور الجديدة التى تنم عن ثروة مستحدثة ، وهى مزوقة ومزركشة فى تكلف وإسراف . وكانت البارونة جالسة متكئة فى صالون صغير يشبه فى زينته المقاهى إلى حد كبير . فحز هذا فى نفس الشاب الذى كان يحسب أن مجرد حضوره كاف لادخال البشر على قلب أى امرأة . لهذا قال لها :

— ليس لى كبير حق فى معرفة أسرارك يا سيدتى ، ولكن فى مرجوى على الأقل أن تصارحينى ببساطة إذا كان وجودى معك يثقل عليك

— بل ابق .. فانك إذا مضيت بقيت وحدى ، ذلك أن نوسينجين سيتعشى فى المدينة ، وأنا لا أريد أن أنفرد بنفسى ، فالتسلية لازمة لى أشد اللزوم

— ماذا بك ؟ خبرينى وإلا ظننت أن لى ضلعاً فى همومك

— يا صاحبى هذه هموم ناشئة عن اختلافات بينى وبين زوجى . ألم أقل لك أمس الأول إننى لست سعيدة فى حياتى ؟ انى مقيدة بقيود من ذهب ...

— وماذا ينقصك ؟ فأنت جميلة وشابة ومحبوبة وغنية..

— دع الحديث عنى جانباً . فقد أتيت لنتعشى على انفراد ثم نمضى معاً لسماع الموسيقى . فخبرنى هل تروق زينتى فى نظرك ؟

وقامت لتريه ثوبها من خلف ومن قدام ، وهو من الكشمير الأبيض تزينه نقوش فارسية من آنق ما يكون

— كم أتمنى أن تكونى لى وحدى ، فأنت فاتنة !

— لن تهنأ بهذا لو تحقق ، فانى امرأة شقية

— ما أشوقنى الى معرفة علة كآبتك

— لو صارحتك بها لتجنبتنى

— اسمعى ! إذا كانت تثقل على صدرك الهموم فلن تجدى خيراً منى للافضاء بها اليه ! فأنا أريد أن أبرهن لك أننى أحبك لذاتك ، فإما أن تكاشفينى بآلامك حتى أجتهد في القضاء عليها ولو كلفتنى قتل ستة رجال ، وإلا فارقتك إلى آخر الزمان

فخطرت لها فكرة يائسة جعلتها تدق جبهتها بيدها وهى تصيح :

— سأضعك موضع اختبار . أجل ، لم يعد أمامى سوى هذه الوسيلة بالذات

ودقت الجرس فدخل الوصيف وأمرته بإعداد عربة البارون لكى تخرج فيها . ثم نهضت

وأشارت إلى إيجين أن يتبعها وهو يحسب نفسه فى حلم ، فاستقلت معه عربة زوجها وصاحت بالسائق :

— الى الباليه روايال بالقرب من المسرح الفرنسى

وكانت طول الطريق تبدو مضطربة ورفضت الاجابة على الأسئلة الكثيرة التى ألقاها عليها ايجين لما ركبه من الحيرة . .

فلما وقفت العربة حدقت البارونة فى الشاب ثم سألته :

— أتحبنى باخلاص ؟

— لا شك فى ذلك

— ألى درجة عدم إساءة الظن بى مهما طلبت اليك ؟

— نعم . . ولا ريب

— وهل أنت مستعد لاطاعتى طاعة عمياء ؟

— كل الطاعة . !

— هل تتردد على موائد اللعب ؟

— على الاطلاق

— آه . إنى أتنفس الصعداء لهذا الجواب ، فان معنى هذا أنك ستربح . خذ هذه المائة فرنك ، واعلم أنها كل ما تملكه تلك المرأة التى ظننتها فى أوج السعادة . فاصعد الى بيت من بيوت الميسر الموجودة فى هذه المنطقة وغامر بالمائة فرنك فى لعبة يسمونها الروليت ، وافقد كل شىء أو رده الى ستة آلاف فرنك ، وأعدك أن أحدثك عن أشجانى عند عودتك

— لتتخطفنى الأبالسة اذا كنت قد فهمت شيئاً مما قلته لى الآن . ولكنى مطيع أمرك كما وعدتك . . .

وقال اجين فى نفسه وقلبه يرقص طرباً بين جنبيه :

— اراها تتآمر معى ، ومعنى هذا أنها لن تجرؤ على صدى بعد الآن . . .

المائدة الخضراء

وأخذ منها ايجين كيس النقود الأنيق ، واتجه إلى المنزل رقم ٢٩ بعد أن دله عليه أصحاب الحوانيت فى الشارع . وصعد السلم ، وسأل عن « الروليت » ، فقاده النادل إلى مائدة طويلة ولفت الفتى أنظار زبائن المائدة الخضراء المدمنين ، لأنه كان بادى الجهل باللعبة ، فالتفوا حوله مستطلعين ، فاذا به يسأل فى سذاجة :

— أين ينبغى أن أضع النقود ؟

فأجابه شيخ عليه وقار المشيب :

— إذا أنت وضعت مبلغاً على رقم من هذه الأرقام الستة والثلاثين ، ووقفت العجلة على هذا الرقم ، أخذت مبلغك مضاعفاً ستا وثلاثين مرة

فوضع ايجين المائة فرنك على الرقم الدال على عمره ، وهو واحد وعشرون . ودوت فى القاعة صيحات الدهشة قبل أن يتبين الفتى علة هذه الضجة .. فقد ربح وهو لايدرى !

فقال له السيد المسن :

— خذ مالك وانصرف ، فان المرء لايربح مرتين متواليتين على هذا النهج

وتناول ايجين المال ، فاقتطع منه ثلاثة آلاف وستمائة فرنك ، وضعهـا بكل سذاجة على اللون الأحمر . ودارت العجلة وكسب مرة أخرى ، فأعطاه الموكل بالمائدة ثلاثة آلاف وستمائة فرنك أخرى . ومال الشيخ على أذن الفتى وقال له بالحاح :

— لقد ربحت سبعة آلاف ومائتى فرنك ، فاذا أردت نصيحة خالصة فانصرف لتوك ، فان اللون الأحمر قد خرج حتى الآن ثمانى مرات متوالية . وإذا كان فى قلبك ميل الى الرحمة فنى وسعك أن تقدر نصيحتى قدرها بأن تخفف وطأة البؤس عن محافظ سابق من رجال نابليون أصبح فى حاجة ماسة إلى المساعدة

وفى غمرة هذا الجو أعطى الفتى الرجل مبلغاً من المال يصل إلى مائتى فرنك تقريباً وانطلق بالسبعة آلاف فرنك وهو يكاد يكون أجهل بالعاب المـائدة الخضراء منه حين أقبل عليها ، ولـكنه كان شديد السرور بحظه المواتى . فلما دخل العربة التى تنتظره فيها البارونة وأقفل بابها قال لها وهو يريها السبعة آلاف فرنك :

— والآن إلى أين ؟

واحتضنته دلفين لشدة فرحها وقبلته بحرارة ولكنها لم تكن قبلة صادرة عن رغبة أوعاطفة غرام ، وهتفت به :

— لقد أنقذتني . .

وكانت دموع الفرح تنهمر على خديها حين استطردت لاهثة :

— والآن سأدلى لك بالمسألة كلها ، فأنت صديقي ، أليس كذلك ؟ انك تظنني غنية تحت يدى المال بغير حساب ولا ينقصني شيء . فاعلم إذن أن البارون دى نوسنجين لايدع لى التصرف في درهم واحد : فهو يدفع بنفسه نفقات البيت ونفقات عرباتي ومقاصيرى في المسرح ويسمح لى بميزانية ضئيلة جداً للثياب والزينة ويلاحقني بالحسابات الدقيقة والمراجعة في كل باب من أبواب المصروفات وكبريائي تحول دون التوسل اليه أو بيع عواطفي له باظهار التودد والهيام في نظير الحصول على مزيد من المال منه . مع أن بائنتي تبلغ سبعمائة الف فرنك . فقد تزوجته وأنا صغيرة السن بحيث كانت عبارات طلب المال — ولو كان مالى — تقف في حلقي . فكنت أعتمد على مايمنحني إياه أبي . فلما غاض هذا المعين تورطت في الدين . حتى أصبح الزواج في نظرى خيبة أمل مرة ، فكرهت هذه الحياة المشتركة بحيث لا أتردد في الانتحار إذا أجبرت على الحياة حياة تخالف مانحن عليه الآن من اختصاص كل واحد منا بمخدعه الخاص . . . فهو رجل كز فظ . وتصور يا صديقي مبلغ تعاستي حين أبى اليوم أن يعطيني ستة آلاف فرنك ، مع أنه يعطى هذا المبلغ كل شهر لعشيقته ، التي ليست إلا فتاة من راقصات الأوبرا الخاملات ... لقد خطر لى أن أنتحر .. فاذا أصنع ؟ أألجأ إلى أبي ؟ انه لايستطيع لى الآن شيئاً ، فقد جردناه — أنا وأختي انستازى — من كل ما كان لديه ، وأنا أعلم أنني لو طلبت اليه هذه الستة آلاف فرنك لأقدم على بيع لحمه إن استطاع ليوفر لى هذا المبلغ . . ولكني سأزعجه في غير طائل ، فيزيد همه ويستفحل ألمه . وهأنتذا أنقذتني من الفضيحة والموت ... وهذا ياسيدى تفصيل مارأيتني أقدم عليه من الفعل المضطرب . . . ولا تظنني وحدى في هذا الوضع الشاذ ، فنصف عقائل باريس يعانين ما أعاني ، ويثقل عليهن العيش في بيوتهن ، وأن بدين أسعد الخلق وأكثرهم بحبوحة ويساراً . بل إني أعرف من هن أشد شقوة مني ، فثمة سيدات يجمن أولادهن ، لكي يتمكن من شراء ثوب جديد ، أو يزورن في « فواتير » نفقات البيت . أما أنا فاستنكف من هذا الخداع ، ولا أقبل أن أنيل زوجي ماهو حل له مادمت لا أضمر له الحب ! مع أن نوسنجين يتمنى رضاى ، وهو على استعداد إذا دفعت الثمن أن يغرقني في الذهب . . ولكني أفضل أن أبكى على صدر صديق حنون من أن أبيع نفسي لهذا الزوج الفظ . . . وشكراً لله ، فان دى مارساى لن ينظر إلى الليلة نظرته إلى امرأة دفع لها ثمن الهوى !

ثم غطت وجهها بيديها حتى لا يرى الشاب دموعها ، ثم التفتت اليه وقالت :

— عدني ألك ان تستخدم ضدى سرى هذا . . .

فلما وعدها تناولت يده وشدت عليها ، ثم أعطته ألف فرنك من السبعة آلاف ، واحمر وجه الفتى ورفض بشدة ، بيد أنها قالت له فى إصرار :

— سأشعر إذا لم تكن شريكي أنك عدوى

— سآخذها اذن ، ولكن عديها مالا مدخراً تطلبينه متى شئت

— ليكن ، على شرط واحد : أن تقسم لى ألا تعود الى المائدة الخضراء أبداً . . رباه ! كيف أغفر لنفسى أننى أفسدتك وعرضتك للغواية !

ووصلت بهما العربة الى دار البارونة ، فأخذته الى جناحها الخاص ، واستمهلته حتى تكتب خطاباً نعتته له بأنه خطاب عسير . فهى تريد أن ترسل الستة آلاف فرنك الى مسيو دى مارساى ، فهو قد أقرضها إياها وهى كارهة ، لأنها لا تريد أن يظل اليها نظرته الى بائعة هوى . . . فقال لها ايجين :

— ولماذا تكتبين ؟ ضمى أوراق النقد فى مظروف ، وأغلقيه واكتبى عليه العنوان . . وكفى . . . ثم أرسليه مع وصيفتك

— لله ما أحسن رأيك . ولا عجب ! فتلك أساليب أبناء البيوتات تهديهم اليها بصيرة نافذة وفطرة سليمة راقية.

وفعلت ما أشار به عليها ، وأرسلت وصيفتها تيريز بالخطاب الى دار « دى مارساى » . وكان العشاء قد أعد ، فقاما الى قاعة المائدة ، واذا مائدة داخرة حقاً . وقالت البارونة وهى تجلس قبالته :

— فى جميع الليالى التى نذهب فيها الى الأوبرا الايطالية ، أنت مدعو للعشاء معى هنا ، ثم تصحبنى الى الأوبرا . . .

— كان يسرنى أن أتعود هذه الحياة الناعمة الرخية ، لو أنها تدوم ، ولكن هذا أصنع وليس لطالب فقير مثلى أن يقدر على هذا المستوى العالى من الحياة ؟

— لا تقلق من هذه الناحية ، ولتكن لك فى مسألتى عبرة : فمن كان يقدر أن أمورى ستسوى على هذا النحو فأنتقل من هاوية الشقاء الى قمة السعادة ؟

وتناول ايجين يد البارونة وضغط عليها شاكراً . . .

وفى مقصورتها بالأوبرا ، تشابكت يداهما معظم الوقت ، يتناجيان باللمسات كلما حركت أشجانهما الموسيقى الرقيقة . وكانت هذه السهرة من أمتع الليالى وأكثرها سحراً ونشوة للشابين . حتى إذا انتهت الرواية ، أصرت البارونة على توصيل الشاب إلى قرب بيته ، مع أنها ظلت تصده وتذوده طول الطريق عن قبلة كان ينازعها إياها . . . وقد شاقه طعم القبلات التى غمرته بها قرب الباليه رويال ، عندما عاد اليها بما كسب من النقود

وتكدر ايجين لهذا التغير الذى جعلها تضن عليه بقبلة يلتمسها وهى التى منحته قبلات

بلا التماس منذ ساعات ... فلما سألها تفسير هذا التناقض الظاهر ، قالت له :

— تلك كانت قبلات عرفان الجميل ، لما صدر عنك من إخلاص غير متوقع . . أما الآن فالقبلة معناها الوعد والتأميل . . .

— وهل ترفضين أن تعديني وتمنيني بالسعادة ؟

وبدا عليه الغضب ، وندت منه إشارة ضيق وتبرم ، فمدت اليه يدها في دلال يذيب قلب العاشق الولهان كي يقبلها ، فرفعها الى فمه في اضطراب وارتباك سر لها قلبها ، لأنها استدلت من ذلك على عشقه لها عشقاً عميق الجذور في نفسه . . . فقالت له وهو يغادر العربة :

— الى اللقاء يوم الاثنين ، في الحفلة الراقصة عند الماريشالة كاريليانو . . .

واستأنف الفتى طريقه على قدميه ، في صمت الليل وضياء القمر ، وكأن في صدره عصفوراً يغني . . .

الدرس الثالث

وكان الأب جوريو قد ترك باب غرفته مفتوحا كما ترك شمعته مضاءة حتى لا ينسى إيجين عند عودته فى ساعة متأخرة ان يدخل اليه توا فيحمل اليه آخر الأخبار عن ابنته وكيف بدت تلك الليلة والى أى حد كان تمتعها بالسهرة والسماع . ولم يخف إيجين عنه شيئاً مما حدث . فأخذت الشيخ نوبة من الغضب والحمية وصاح :

— إنهما تظناني معدما . وهذا خطأ محض ، فما تزال فى حوزتي ثروة تمدني بدخل سنوى يصل الى ألف وثلاثمائة فرنك . يا الهى ! لماذا لم تأت البنية المسكينة الى أبيها ، ولماذا حملت فى صدرها الصغير اليافع كل هذه الآلام دون ان تشركني فيها ؟ اني كنت خليقاً أن أبيع جانباً من هذا الدخل ، فأنا رجل قليل المطالب ضئيل الأرب فى متاع الحياة ، ولماذا لم تبادر باخبارى فى الحال بما تعانيه ابنتى من ضيق ؟ وكيف طاوعك قلبك يا جارى العزيز أن تغامر على المائدة الخضراء بفرنكاتها المائة ؟ إلا انه دون هذا وتنفطر أكباد غلاظ وقلوب شداد ! أهذه إذن هى الزيجات الناجحة والمصاهرة التى ترفع الرأس ؟ والله لو ملكت رقبتى زوجى بنتي لما تركتهما يعيشان لحظة واحدة ولخنقتهما خنقا ! يا إله السماء ! أتقول انها بكت ؟ هل بكت حقاً ؟

— نعم ورأسها على صدرى

— أعطنيه ! أعطنيه حالا ! اليست عليه قد سقطت دموع ابنتى أنا ؟ دموع عزيزتى دلفين التى لم تبك أبداً وهى طفلة ، لأنى لم أكن أمنعها شيئا . . سأشترى لك صداراً غيره ، فلا تلبسه ودعه لى ! إنها صاحبة الحق فى استغلال ثروتها الخاصة كما نص على ذلك فى عقد الزواج . وسأذهب الى المحامى منذ الصباح وأطلب حساباً دقيقاً من هذا الزوج القادر عن أموال ابنتى . أجل إننى قد أصبحت الآن ذئباً عجوزاً بلا أسنان ، ولكنى سأسترد ما سقط من أسنانى لأؤدب هذا الوغد . . . !

— خذ أيضاً هذه الألف فرنك وضعها فى الصدار لأنها أصرت أن آخذها مما ربحت لها ، فاحتفظ لها بها

فرشق الأب جوريو ايجين بنظرة فياضة بالامتنان وتناول يده فشد عليها وأسقط عليها دمعة دافئة وهو يقول له :

— ثق يا بنى أنك ستصادف النجاح فى أمورك ، لأن الله عادل ، ولأن أمثالك فى الدنيا

قليل ، فهل لك أن تكون لى بمثابة الولد فيصبح لى ابن وبنتان ؟ اذهب الآن ونم ، فإنك مستطيع فى هذه الفترة من حياتك أن تنام ملء جفنيك ، لأنك لم تصبح بعد أبا .. لقد بكت ، بكت ، مى بكت . وها أنذا أتلقى هذا النبأ المزلزل فى حين أننى كنت وقت بكائها مشغولا فى تناول الطعام كأى حيوان بهيم

فلما أوى الشاب الى حجرته واستعد للرقاد جعل يقول فى نفسه :

— لعمرى من الخير ان يحيا الانسان معتصما بالشرف والاستقامة فان راحة الضمير هى المتعة الكبرى فى الحياة . .

وفى اليوم التالى ذهب ايجين الى دار الفيكونتس دى بوسيان كى يصحبها الى المرقص المقام فى دار المارشالة دى كاريليانو ، حتى تقدمه اليها . وفى صالون المارشالة تهلل وجهه عندما وقعت عيناه على دلفين دى نوسنجين بين الحاضرات وتبين الفتى فى هذه الحفلة أى مزية حصل عليها فارتفع بها قدره اذ اشتهر بين الناس بأنه ابن عم الفيكونتس دى بوسيان ، وأضف الى هذا ما تناقلته الألسن من توثق العلاقة بينه وبين البارونة دى نوسنجين الحسناء ، فأصبح موضع الحفيظة والحسد من كثيرين من الشبان ، وطرق سمعه طرف من أحاديثهم عنه فانتفخت أوداجه

وأجدى هذا عليه من جهة أخرى لأن دلفين خشيت أن تفقده إذا هى تدللت عليه كثيراً فوعدته عند الانصراف بتلك القبلة التى منعته إياها فى المرة السابقة

وفى تلك الحفلة قدمته الفيكونتس إلى كثيرات من العقائل وتلقى منهن دعوات كثيرة للتردد على صالوناتهن ، فأضحى فى لحظة واحدة يملك جواز المرور إلى أرقى الأوساط فى العاصمة الفرنسية

فلما كان الصباح وجلس نزلاء الخان إلى مائدة الافطار ، جعل يقص على مسمع منهم على الأب جوريو مالقيه من توفيق فى ذلك الحفل ، فابتسم فوتران ابتسامة خفيفة وقال :

— وهل تعتقد أنه يمكن لشاب أن ينجح فى المجتمع العالى إذا ظل مقيما فى هذا المكان الحقير وفى هذا الحى المتواضع ؟ ألا فاعلم ياصديقى الشاب أنك إذا رمت النجاح حقاً والتبريز فى المضمار الاجتماعى ، أنه ينبغى لك ثلاثة جياد ، وعربة لنزهة الصباح ، وأخرى لسهرات المساء ، وتلك وحدها لاتكلفك أقل من تسعة آلاف فرنك يضاف اليها ثلاثة آلاف أخرى فى السنة للطرزى وستمائة فرنك للعطور ، وخمسمائة فرنك للأحذية ومثلها للقبعات ، أما الغسالة فلا تكلفك إلا ألف فرنك ، فالشبان المتأنقون يحرصون أشد مايحرصون على ارتداء الأقمصة فى غاية من النظافة ومجموع هذه النفقات أربعة عشر الف فرنك سنويا لايدخل فيها ماينبغى أن ينفق عن سعة على مائدة القمار وفى الهدايا التى تقدم فى المناسبات ، فخذ كلامى هذا قضية مسلمة لأننى جربت هذه الحياة بنفسى فيما مضى ، ووجدتها لاتتيسر بأقل من خمسة وعشرين الف فرنك . ثم لاتنس أنه ينبغي أن يكون لك وصيف أنيق مهذب ، أم ترى سيقوم كريستوف خادم خاننا الأزلى بحمل رسائل الغرام ؟ وهل ستكتب تلك الرسائل فى أوراق الكراسات المدرسية ؟

ان هذا سيكون بمثابة انتحار اجتماعي لو فعلته ، فصدق نصيحة صديق مخلص يحفل وطابه بتجارب العمر ، وتخير منذ الآن لنفسك احدى خطتين : اما حجرة فى السطح وكدح فى سبيل العيش ، واما خطة أخرى تختلف عن نمط هذه الحياة كل الاختلاف

وغمز فوتران بعينه إلى جهة الآنسة دى بايفير ، على سبيل تذكير الشاب بما تحدثا فيه من أمرها

إذعان

والحق أن إيجين دى راستنياك كان فى موقف دقيق محير ، وقف مثله معظم الشبان العاشقين: فالبارونة دلفين دى نوسنجين عرضته على درجات الجحيم التى يعرفها أهل الهوى الصادق، واستخدمت فى ذلك أقصى فنون السياسة الانثوية التى تعرفها باريس . فهى بعد أن اكتسبت فى نظر الكافة سمة الاستئثار بعواطف ابن عم الفيكونتس دى بوسيان ، لم تنله من نفسها ما كان يؤهله له ظن الناس من أمره معها . فظلت نحواً من شهر تلهب حواسه وتلعب بها ، حتى كاد ييأس من حبها

فهل كان هذا تدللا من البارونة ، أم تلاعبا ، أم هو حساب مقصود وخطة موضوعة ؟

ربما كان الأمر على خلاف هذا اطلاقاً . فمن الجائز أنها بعد أن قربت الفتى ، وأحست له عليها تأثيراً كبيراً ، تحركت كبرياؤها فمنعتها من السقطة الأخيرة . كما أنه من الجائز أيضاً أن تتأنى الباريسية كثيراً قبل الاستسلام النهائى لعاشقها ، حتى تمتحن اخلاصه وتعرف حقيقة ما ينطوى عليه قلبه . وهذا هو الاحتمال الراجح على سواه ، فقد خابت آمال البارونة فى عشقها الأول ، ومنيت بفشل ذريع ! فلها العذر كل العذر إذا لزمت الحذر . يضاف إلى هذا أنها قد تكون استشفت فى الفتى بعد نجاحه الاجتماعى الخاطف ميلا الى الغرور والاستهانة بقيمة الحظوة عندها ، فأرادت أن تفرض احترامها على شاب لا يزال فى حداثة السن ، حتى ترده الى حسن التقدير ، فلا يظنها امرأة سهلة تبذل نفسها لكل طارق يدق باب قلبها ، أو باب مخدعها

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب أو المبررات ، فالحقيقة التى لا شك فيها على كل حال أن دلفين مطلت الفتى الوصال ، ولعبت بعواطفه ، ولذ لها هـذا اللعب ، كما يلذ للهرة أن تلعب بفريستها ، واثقة من النصر ، ومن وقوع الفريسة بين براثنها فى أى وقت تشاء .. ولم يشأ إيجين أن تكون خاتمة مغامرته الأولى فشلا محضاً ، فلزمها ولم ينفض يده منها رغم ما لقيه من عذاب أليم

ولكن هذه الفترة التى قضاها الفتى فريسة للشد والجذب والمنح والمنع كلفته تلك العلالة من المال التى كانت قد تجمعت بين يديه بثمن غال من تضحيات الوالدة والشقيقات . وكم من مرة ثقل عليه فيها ضيق ذات اليد فخطر بباله أن يضرب عرض الحائط بصوت ضميره ويستسلم لما عرضه عليه فوتران من الزواج بالآنسة دى تايفير ، وحدث فعلا فى لحظة من لحظات القنوط ــ وكان وحيداً مع مدام فوكير ومدام كوتير وفيكتورين ــ ان رشق الفتاة بنظرة ناطقة

بالرقة ، فغضت الفتاة بصرها ثم سألته بعد لحظة صمت قصيرة :

— أتشكوها دفينا يا سيد إيجين ؟

— وأي امرىء لا يطوى صدره على هم ؟ ولو أننا معاشر الشبان وثقنا من أن ثمة قلوباً تنطوى لنا على الحب الصادق ،لخير ما نتحمله من أرهاق الحياة لما طرق الهم قلوبنا

فرمقته الفتاة بنظرة لا يختلف فى تأويلها اثنان . فهمس لها الفتى :

— أنت اليوم واثقة من قلبك يا آنسة ، ولكن هل تضمنين أنه لا يتغير بفعل الأيام ؟

فطافت بشفتى الفتاة المسكينة ابتسامة كأنها شعاع باتق من روحها فأضفت على وجهها وضاءة ارتاع لها الفتى ، لأنه أدرك منهـا أى بركان كان خامداً من العواطف والانفعالات تعرض له ليحرك كوامنه ، ولكنه استطرد يسألها :

— إذا واتتك أسباب الثراء غداً من حيث لا تعلمين ، بقيت على حب شاب فقير كان قد راق فى عينيك أيام بؤسك ومسغبتك ؟

فأومأت له برأسها إيماءة لطيفة

— شاب فقير جداً إلى درجة الاعدام ؟

فأومأت إليه مرة أخرى جواباً على سؤاله

وفى هذه اللحظة صاحت بهما مدام فوكير من الطرف الآخر للصالون حيث كانت تجلس مع مدام كوتير قائلة :

— بماذا تهرفان ؟

فصاح بها ايجين :

— دعينا وشأننا فاننا نتفاهم

— أنستطيع أن نأمل إذن فى إعلان قريب لخطبة الشيفالييه إيجين دى راستنياك والآنسة فيكتورين تايفير ؟

وقيلت هذه العبارة بصوت أجش عريض هو صوت فوتران الذى ملأ جسمه الضخم فراغ باب القاعة . فتدخلت مدام كوتير وقالت :

— كى دعابات نائية عن موضعها ! هيا بنا نصعد يا ابنتى

وصحبت مدام فوكير السيدة والفتاة لتقضى السهرة فى حجرتهما تغزل الصوف وتوفر شمعتها التى تنيرها فى حجرتها . فبقى ايجين وفوتران وحدهما وجها لوجه ، فرشق فوتران الفتى بنظرة نافذة وقال له :

— كنت أعلم أنك ستنتهى إلى النزول عند رأيى. بيد أنى أنصحك ألا تبت الآن فى الأمر لأنك لست فى حالتك العادية فى هذه اللحظة : فأنت غارق فى الدين ، وأنا لا أريد أن يكون

قرارك صادراً عن اندفاع عصبي ، بل عن تفكير منطقي هادىء . أما الآن فاذا كان يعوزك . لغ من المال ، فخذ ما تشاء

وأخرج هذا الشيطان من جيبه حافظة منتفخة بالأوراق المالية أعطى منها الفتى ثلاثة آلاف فرنك. وكان ايجين في هذا الوقت بالذات في أشد حالات العسر المالي: فهو مدين للماركيز داجودا والكونت مكسيم دي تراي بخمسمائة فرنك خسرها أمامهما في القمار . وهو لايملك هذا المبلغ ومن ثمة فهو غير مستطيع أن يذهب لقضاء السهرة عند الكونتس دي ريستو التي عدلت عن ايصاد بابها في وجهه بعد النجاح الداوي الذي لقيه في المحافل والمجتمعات . لهذا كان الفتى يشعر بضغط هائل على أعصابه وهو يقول لفوتران :

— أنت تعلم جيداً يا سيدي أنه يستحيل على بعد الذي أفضيت إلى به أن أكون مدينا لك بأي شكل من الأشكال

— يعجبني منك هذا الكلام . واني أوافقك عليه . فلن تكون مديناً لي بشيء من الفضل إذا أنا تقاضيت ثمن هذه الخدمة مبلغا من المال . فهاك سند أكتب فيه بخطك أنك تتعهد بدفع ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك بعد عام من هذا التاريخ . فالفائدة التي تبلغ خمسمائة فرنك مسكن كاف لوساوسك وهواجسك ، لأنهـا تجعلك غير مدين لي بأي فضل ، وتسمح لك بارضاء كبريائك كما تشتهي عن طريق احتقار خلقي المتواضعة . واني أقبل هذا عن طيب خاطر عالماً أنك ستنقلب إلى حي في يوم من الأيام عندما تحمد عاقبة نصحي لك واني والله لفي عجب من تغير الأحوال في هذا الزمان : ففيما مضى كان المرء ينقد رجلا من أهل الشجاعة خمسمائة فرنك ويقول له :اقتل لي فلانا من الناس ، ثم ينصرف إلى تناول طعامه بنفس مطمئنة . أما اليوم فها أنذا أعرض عليك ثروة طائلة في نظير إيماءة من رأسك لاتكلفك شيئاً ولا تورطك في شيء ، ولكنك مع هذا تقف متردداً . يالجيل الخرع .!

فوقع ايجين السند وتسلم الثلاثة الآلاف فرنك ، واستطرد فوتران :

— والآن فلنتحدث فيما يجدي : فأنا أريد السفر إلى أمريكا في ظرف بضعة أشهر ،لكي أتفرغ لزراعة الطباق وأرسل اليك من هناك لفائف التبغ الفاخر تذكاراً لصداقتنا،فاذا أصبت ثروة فاني عازم على مساعدتك ، وإذا لم أنجب أطفالا فسأوصي لك بثروتي ، فأنا أشعر نحوك بعاطفة حب صادق ، وأنا من ذلك الطراز من الرجال الذي يقدس العواطف ويعيش لها : ذلك أني أعيش في فلك أعلى من المستوى العادي للناس ، فليست الأعمال عندي شيئا مذكوراً لأنها مجرد وسائل ، والغايات وحدها هي التي تعنيني . وما الانسان في نظري ؟ هو كل شيء أو هو لاشيء ! هو لاشيء بل هو أقل من الهباء وأهون من العدم والعفاء إذا كان على غرار جارنا بواريه ، فهو والبرغوث سواء وليس سحقه جريرة أكبر من سحق بقة ، فهو تافه قدم لاحيوية فيه ولا شخصية له . أو هو كل شيء ، بل أنه أقدس من الانسان ، هو إله إذا كان

ى غرارك مملوءاً بدفقات الحياة ، وليس مجرد آلة صماء تأكل وتشرب وتتلهى ! لأنه يعيش بعواطفه ، والعواطف عندى هى لباب الحيـاة ، فما العاطفة إلا العالم كله ملخصاً فى حركة من حركات الوجدان . انظر إلى هذا الأب جوريو : بنتاه هما العالم أجمع لديه . وأنا مثله ولكننى أرى أن العالم أجمع يتلخص فى عاطفة الصداقة التى تربط بين رجل ورجل . وهذا كل ماعندى قد أفضيت اليك به ، واثقاً أنك ستنتهى إلى حكمة الزواج من هذه الفتاة

وانصرف فوتران قبل أن يسمع إجابة الشاب ، كأنه واثق أن الاعتراض أو الرفض لاقيمة له أمام الظروف التى يضمرها المستقبل

وقال الفتى يخاطب نفسه وهو يتحسس الثلاثة الآلاف فرنك :

— فليفعل ما يحلو له ، فإنى لن أتزوجها

ولما هدأ روعه قليلا قام فارتدى ملابسه واستقل عربة إلى قصر مدام دى ريستو ، فأدى ى دى تراى وداجودا دينهما ، ثم لعب لعبة « الويست » الانجليزية التى شاعت فى المجتمعات البارييسية الراقية فاسترد ما كان قد خسره ،وخيل اليه أن هذا الحظ السعيد قد كافأته بهالسماء لتمسكه بطريق الاستقامة فى مسألة الزواج بالآنسة دى تراى ، ذلك الزواج الذى يخفى الرضى بجريمة قتل

فلما كان الصباح التالى أسرع إلى فوتران وطلب منه السند ورد له الثلاثة الآلاف فرنك مزهواً ، فابتسم الرجل ابتسـامة الخبير بأطوار الشباب ، وكأنه يقول :

— من يعش يره ..

مؤامرة أخرى

وبعد يومين شوهد بواريه والآنسة ميشونون جالسين مع شخص ثالث فى منعطف منزل بحديقة النباتات . وكان هذا الشخص الثالث يدعى السيد جوندورو . وكان هذا السيد يحاول إقناع السيدة ميشونون بأمر تظهر التردد فى إمضائه

— ... ولست أرى يا آنستى ما يبرر هواجسك مع أن السيدوزير الأمن العام فى المملكة ...

فصاح عندئذ بواريه :

— السيد وزير الأمن العام !

— ... أجل السيد الوزير بنفسه مهتم بهذا الموضوع

وكانت كلمة السيد الوزير كافية لاستيلاء الخشوع على السيد بواريه الموظف المتقاعد الذى قضى حياته فى التعبد لأى وزير ، فالوزير له من القداسة عنـد مثله ما لبابا روما عند جماعة المؤمنين بالكثلكة ، فهو نقى طاهر معصوم من الخطأ ، تحيط هالة من التقديس بجميع أفعاله بل باسمه المجرد . ويبدو أن السيد جوندورو قد استطاع أن يسبر غور بواريه فتعمد ذكر اسم السيد الوزير حتى يستولى على إرادة هذا الرجل ، كما تستولى دقات الطبول العسكرية على حركات الجواد الحربى المدرب . وبالفعل أنشأ بواريه يضغط على الآنسة ميشونون كى تستجيب لرغبة السيد الفاضل مندوب وزارة الأمن العام . واستطرد جوندورو يقول ضارباً على هـذا الوتر الحساس :

— إن السيد الوزير لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن المدعو فوتران والقاطن بخان فوكير إن هو فى الحقيقة إلا مجرم هارب من الليمان مشهور باسم قاهر الموت ... فانه أوتى من حسن الطالع ما جعله يفلت من الموت بما يشبه المعجزة مراراً عديدة مع شدة جرأته ومجازفته . فهذا الرجل شخص خطر ولكنه غريب الأطوار : فهو لا يخلو من شهامة وأريحية ، فهو مثلا قد حكم عليه فى المرة الأخيرة لجرم لم يقترفه .. ذلك أنه تحمل وزر المجرم الحقيقى وهو شاب جميل جداً من أصل ايطالى ، كان يحبه فوتران كثيراً

فسألته الآنسة ميشونون :

— ولكن ما دام السيد الوزير متأكداً من أن فوتران هو بعينه قاهر الموت ، فلماذا يريدنا على معاونته ؟

— إنه ليس متأكداً بمعنى الكلمة ، وإنما هناك قرائن قوية على أن هذا الشخص هو « جاك كولان » الملقب بقاهر الموت ، وأنه موضع ثقة ثلاثة مناسر من اللصوص ، يقوم لهم بدور الوسيط فى تصريف المسروقات ، نظير عمولة كبيرة ، ويحتفظ لهم بأموالهم ، ويستغلها ويستثمرها لهم ، وينفق منها على أسرهم اذا سجنوا ، فاذا أطلق سراحهم أو هربوا من السجن رد اليهم مالهم ... فمن الأهمية لدى الدولة بمكان أن تستطيع القاء القبض على هـذا الشخص ، والاستيلاء على المال الموجود تحت يده ، والذى يقدره العارفون بمبلغ طائل ... فاذا ساعدتما الدولة فى هذا السبيل ، لم تضن عليكما بالمكافأة الجزيلة . فيمكن أن يعود السيد بواريه الى الخدمة ، سكرتيراً لمفتش من مفتشى البوليس مثلا ، ولا يحول ذلك دون استمراره فى قبض المعاش عن خدمته السابقة . . أما الآنسة فستكون مكافأتها ذات بال

فسألته الآنسة ميشونون :

— ولكن لماذا لا يأخذ فوتران لنفسه هذا المال ويهرب به !

— لأنه اذا هرب فسيتبعه المجرمون الموتورون أينما حل لينتقموا منه . ثم ان فوتران يعتبر هذا العمل غدراً لا يليق بشرفه

— . . . ولماذا لا تقبض عليه الحكومة بدون وساطتنا ؟

— لأن فوتران يبدو رجلا شريفاً فى الظاهر ، فاذا لم تكن الحكومة متأكدة تأكداً قاطعاً ، كان إقدامها على إزعاج رجل شريف وثرى عملا غير مأمون العواقب ، لأن له أصدقاء فى أعلى الأوساط .. والسيد الوزير لا يريد التعرض لسخط الرأى العام وكبار رجال الأعمال من أصدقاء فوتران بدون موجب. ثم ان مدير البوليس قد يتعرض لفقد مركزه اذا وقع فى مثل هذا الخطأ

فعادت ميشونون تقول :

— ولكنى أظنكم بحاجة الى امرأة جميلة للوصول الى سره . . .

— قاهر الموت لا يهتم بالنساء ولا يحبهن . . .

— ففيم تريد معاونتى لك إذن ؟

— المسألة فى منتهى البساطة : سأعطيك سنجوراً صغيراً فيه مخدر قوى ، إذا صببته فى كأس فوتران أو فى قهوته فقد وعيه فى الحال . وليس أيسر فى هذه الحالة من نقله الى فراشه وخلع ملابسه بحجة إفاقته ، فتسنح لك الفرصة للتحقق من وجود « طابع الايمان » المدموغ به كتف المجرم الهارب . . .

— ولكن اذا لم أجد هذا الطابع ، هل تعطونى مكافأتى ، وهى كما تقول ألفان من الفرنكات . . .

— طبعاً لا . . . خمسمائة فقط فى هذه الحالة . . .

— هذا مبلغ لا يساوى الخطيئة . إن الوزر واحـد فى الحالتين ، فلماذا لا يكون الثمن

واحداً ؟ اسمع ! اجمل المكافأة ثلاثة آلاف فرنك اذا صح أنه المجرم الهارب ، ولا شيء إذا اتضح أنه ليس هو . . .

— وهو كذلك ! ولكن على أن تتم العملية غداً . . .

— ليس بهذه السرعة ، فلا بد لي من استشارة القس

— إذن نتقابل غداً لأعرف أتوافقين أم لا بصفة نهائية

— هو ذاك . . .

لهو وشجو

ولما ضاق الفتى ايجين بصدود دلفين فى اليوم التالى لم يستطع مقاومة مافى مشروع فوتران من إغراء ، فانزلق فى التودد الخادع لفيكتورين دى تايفير ، وصدقت الفتاة المتلهفة إلى العطف والحب ماتظاهر لها به ، فخيل اليها أن السماء قد فتحت لها أبوابها وأصبح خان فوكير فى نظرها وكأنما قد زانته أبهى الألوان والطنافس التى تزدان بها أفخم القصور

وأخذ الفتى من سورة الندم على هذا الفعل دخول فوتران فى هذه اللحظة ، فقرأ بنظرته النافذة مابين الشابين ، فولت فيكتورين هاربة لاذعراً ولكن خجلا من هذه السعادة التى لم تتمتع بمثلها فى حياتها من قبل ، وقال فوتران لايجين على الأثر :

— ان المسألة فى طريق الحل النهائى : فقد وقعت الفرقة والمشادة بين صاحبي والشاب تايفير ، واستدرج الشاب الساذج حتى تورط فى توجيه الاهانة إلى صديق ، وغدا فى منتصف التاسعة صباحا سيلتقى الغريمان ، وستصبح الآنسة تايفير الوريثة الوحيدة للقلب والدها وثروته فى الوقت الذى تكون منصرفة فيه هنا إلى غمس قطع الخبز فى فنجان القهوة على مائدة الافطار . أليس هذا طريفاً حقا ؟ وقد بلغنى أن الشاب تايفير بارع فى ألعاب السيف ، ولكنه لايعرف ضربة خاصة ابتدعتها أنا ويعرفها صديق ، يطير بها السيف من يد الخصم ويصاب فى جبهته بضربة قاضية . وفى نيتى أن أعلمك هذه الضربة يوما ما ، لأنها نافعة للغاية

وكان ايجين يصغى إلى هذا الكلام مبهوتا ولا يجيب . وفى هذه اللحظة دخل الأب جوريو وبيان شون طالب الطب ونفر من النزلاء الآخرين . وخطر لراستنياك أن يذهب فى المساء ليحيط المسيو دى تايفير الشيخ وولده بحقيقة المؤامرة ، ولكن الأب جوريو مال فى هذه اللحظة على أذنه وقال له :

— أراك مكتئباً ياولدى ، لهذا سأدخل السرور على نفسك ، تعال معى !

فقام الشاب وتبعه وقد استبد به حب الاستطلاع ، وقال له الشيخ :

— لندخل إلى حجرتك ... لعلك قد ظننت هذا الصباح أنها لاتحبك لكثرة ماتدللت عليك ؟ فقد بلغنى أنها صرفتك وأنت غاضب يائس . اعلم إذن أنها صرفتك فى هذا الوقت لأنها كانت تنتظرنى أنا ، لأننا كنا على موعد لنتم أعداد مسكن أنيق خفيف الظل تتلاقيان فيه على هواكما بعد ثلاثة أيام . وهى تريد أن تجعل هذا الأمر مفاجأة لك ، فلا تظهر لها معرفتك به

لأننى أنا أطلعتك عليه لما رأيت حزنك ، فأنت عندى أثير ... وقد انتقينا الأثاث معاً ، وكانت تتحرى أن يكون بهيجاً لجهاز العريس ، وقد استغرق هذا الاعداد أوقاتنا منذ شهر ، وقد رتبت لك الأمر مع المحامى كى يصل الى يد ابنتى ريع بائنتها وهو ستة وثلاثون ألف فرنك فى السنة . . !

وكان إيجين يصفر وهو يتمشى فى الغرفة صامتا وذراعاه معقودتان فوق صدره . فانتهز الشيخ فرصة أدار فيها الشاب له ظهره وهو يتمشى ، فوضع على رف المدفأة صندوقا صغيراً من الجلد المراكشى الأحمر مطبوع عليه بالذهب شعار أسرة راستنياك ، وقال للفتى :

— ياولدى! لقد سعيت لهذا الأمر جهد طاقتى ، ولكننى كنت فى الواقع مدفوعا بالأنانية ، فهل تعدنى ألا ترفض لى طلباً سأتقدم به اليك ؟

— وما هو ؟

— فوق المسكن ، مسكنكما الجديد ، فى الطابق الخامس ، حجرة تابعة لمسكنكما ، فهل فى الامكان أن أقيم فيها ؟ فقد كبرت سنى ولم أعد أطيق كل هذا البعد عن بنتى ، وثق أننى سوف لا أضايقكما ، فيكفينى أن أراها وأن تحدثنى أنت كل ليلة عنهـا ! والحى بعد سيكون أقرب كثيراً إلى الشانزيليزيه التى أرتادها لأرى بنتى أثناء نزهتهما ... ان دلفين قد عادت اليها سعادة الطفولة منذ هذا الشهر ، فهى مدينة لك بطعم السعادة ، ولهذا تجدنى مستعداً أن أفعل المستحيل من أجلك

ومسح الرجل الطيب عينيه فقد كان يبكى

— ... وقد أسعدنى اليوم الحظ بنعمة حرمت منها منذ عشر سنين ، فقد طفت بالحوانيت وابنتى متعلقة بذراعى . ألا ما أحلى أن يشعر الانسان بمس ثوبها وهى تمشى يداعب ذراعه ... فاحتفظ بى فى جوارك ، فقد تحتاج إلى شىء ، فأقضيه لك أنا ، حتى إذا مات هذا الزوج الالزاسى الثقيل تمت السعادة لابنتى بالزواج منك ... وقد قلت لها أنك أعطيتنى الألف فرنك ، فتأثرت كثيراً وأعطتنى شيئاً أوصله اليك . انظر ما هذا الذى فوق مدفأتك ؟

فلما فتح الفتى الصندوق وجد فيه رقعة تحتها ساعة ثمينة ، وفى الرقعة هذه الكلمات :

« أريد أن تفكر فىّ كل ساعة ، لأننى ... دلفين »

فتأثر الشاب حتى لقد دمعت عيناه ، وقال له الأب جوريو :

— اذهب لزيارتها هذا المساء ، فانها تنتظرك ، فالالزاسى سيتعشى الليلة عند صاحبته الراقصة ، فهل تقبل عيشى معك ؟

— أجل يا أبى ، فأنت تعلم جيداً أننى أحبك

— أعلم هذا ، فأنت لا تخجل منى

واحتضن الشاب بحرارة ثم قال له :

— تعهد لى أن تسعدها ! انك ذاهب الليلة . . اليس كذلك ؟

— أجل ، ولكنى سأقضى قبلها أموراً لاتحتمل الإرجاء

— وهل فى وسعى أن أقضى لك شيئاً منها ؟

— تذكرت ! فى الوقت الذى أكون فيه عند دلفين ، تذهب أنت للقاء السيد تايفير الكبير لتطلب اليه موعداً يقابلنى فيه أثناء السهرة لشأن ذى أهمية قصوى

فصاح الأب جوريو فى حدة وقد تغير وجهه :

— أصحيح إذن أيها الشاب أنك تغازل ابنته كما يزعم هؤلاء الأوباش ؟ يا اله السماء ! انك لا تعلم ياولدى مدى مايصل اليه جوريو إذا غضب . فاعلم أنك إذا خدعتنا تعرضت لضربة قاضية ... ولكن هذا مستحيل !

— أقسم لك أننى لا أحب إلا امرأة واحدة فى العالم

— وافرحتاه !

— كل مافى الموضوع أن تايفير الصغير سيبارز بعض الناس غداً ، وقد سمعت أنه سيقتل

— وما شأنك بهذا ؟

— يجب أن نخبره ليمنع ابنه من الذهاب ...

وفى هذه اللحظة سمع عند عتبة الباب صوت فوتران المريض يتغنى بأغنية شعبية ، ثم حضر الخادم كريستوف وصاح :

— أعدت المائدة والجميع فى انتظاركما

وصاح فوتران بمرح :

— هيا تناولا معى زجاجة من نبيذ بوردو

أما جوريو فكان منصرفا إلى سؤال ايجين عن الساعة وهل أعجبته ، ثم استطرد إلى إطراء ذوق ابنته الجميل !

وهكذا هبط فوتران والأب جوريو وراستنياك معا ، وجلسوا إلى المائدة متجاورين بحكم تأخرهم فى النزول

كئوس الطلى

كان تأثير هذا اليقين الذى طرأ على قلب إيجين من جهسة دلفين قاضياً على اغراء فوتران . لهذا أظهر له الفتى أثناء الطعام نفوراً ، مع أن فوتران كان فى تلك الساعة فى قمة المرح والظرف، ينثر الدعابات يميناً ويساراً ، حتى أن مدام فوكير سألته فى دهشة :

— ماذا جرى اليوم حتى يستخفك المرح الى هذا الحد ؟.

— انى دائماً مرح ، حين أوفق فى صفقة رابحة ...

فسأله إيجين متهكماً :

— صفقة ؟

— أجل .. فقد سلمت اليوم بضاعة طيبة سأنال عليها عمولة ضخمة !

فصاحت مدام فوكير :

— ما دام الأمر كذلك ، فلا تضيع الوقت فى الكلام ، وهات نبيذك الموعود

فقال فوتران فى مجون ممزوج بالجد المموه :

— أيها السادة ! ان حضرة الرئيسة قد نبهتنا الى جدول الأعمال ! يا كريستوف .. هات النبيذ

— ها كه يا سيدى !..

فصب فى كأسى إيجين وجوريو من النبيذ ما ملأهما ، ثم وضع فى كأسه بضع نقط امتصها فى بطء ، ثم عبس وصاح :

— هذا ليس من أعلى طبقة . خذ هذه الزجاجة لك يا كريستوف ، وهات أخرى ، مما فى الجهة اليمنى .. نحن هنا ستة عشر ، فأنزل ثمانى قنينات

وما هى إلا دقائق، حتى دارت على الشاربين كئوس الطلى مترعات... وبدأت حرارتها تسرى فى العروق وتصعد الى الرؤوس .. ودوت الضحكات العالية المنطلقة من كل تحفظ ، وتطايرت النكات والقفشات ، وبات الكل يتحدثون فى وقت واحد ... حتى صارت الضجة شيئاً فظيعاً لا يمكن أن يحتملها إلا المخمورون. فالكل يهزلون ويهذرون ، وفوتران يرشقهم باسماً بنظراته الهادئة . . ولا سيما إيجين وجوريو اللذين أسندا رأسيهما الى ظهر المقعد ، وقد بدا عليهما اعياء السكر . والواقع أن كلا منهما كان مشغول البال بما سيصنع فى ليلته ، ولكنه يشعر أنه غير قادر على القيام من مجلسه . حتى إذا استبد بهما خدر الخمر ، ومالت عيناهما الى الغمض ، مال فوتران على أذن إيجين وهمس له ساخراً :

— يا عزيزى الصغير ، لسنا أنداداً للأب فوتران في المكر ، حتى نشتبك معه في صراع غير متكافىء ... ثم هو يحبك كثيراً بحيث لا يدع لك فرصة الإقدام على حماقة .. مثل تحذير تايفير مما ينتظره غداً ! نم يا حبيبى نم ! وفى الوقت الذى تأخذك فيه هـذه السنة من النوم ، يقوم صاحبي بشق طريقك الى ميراث تايفير بحد سيفه الصمصام ... فوت أخيها سينقل إليها ميراثاً صغيراً يبلغ دخله خمسة عشر ألف فرنك فى السنة

وكان ايجين المسكين يسمع كل حرف ، ولكنه لا يستطيع حراكاً ولا نطقاً ،وكأن ضباباً كثيفاً قد ضرب أمام عينيـه . . . ثم خبت حواسه وراح فى غيبوبة ، فى حين انصرف بقية النزلاء ، كل منهم فى حجرته مشغولا بحالة « السرور » التى سببتها له الخمر ... عدا إيجين وجوريو والسيدات ... وعندئذ صاح فوتران :

— لقد سكر هذان !.. ما أروع صورتهما معاً !

ثم جعل يهزهما فلا يستفيقان ، فأسند رأسيهما الى المائدة ليناما أكثر راحة ... ثم قبل جبين إيجين وهو يغنى :

« نم يا حبيبى نم ..

« فأنا ها هنا ساهر ! »

فقالت فيكتورين بقلق :

— أخشى أن يكون مريضاً ..

— ابقى إذن للسهر عليه والعناية به !

ثم مال على أذنها وهمس لها :

— هذا واجب المرأة المخلصة المطيعة ... فهذا الشاب يعبدك عبادة !

ثم انطلق فوتران خارجا ليحضر مركبة يصحب فيها صاحبة الخان الى ملعب من ملاعب التمثيل كما وعدها من قبل ..فـمال جسم جوريو حتى كاد يسقط على الأرض ، فاشمأزت مـدام فوكير وصاحت مستنكرة :

— ما أسخف أن يفقد رجل فى مثل سنه صوابه بفعل الخمر . هذا لا يليق . رباه ! إن الرجل سيقع ، فاحمليه يا سيلفى الى فراشه

فوضعت سيلفى يدها حول خاصرة الشيخ وجرته جراً فألقته بملابسه بعرض السرير ! ثم هبطت مسرعة لتلبى نداء سيدتها التى كانت تصيح بها أن تسرع كى تعـاونها فى لبس مشدها الكبير كى تبدو فى أحسن حالاتها وأرشقها فى صحبة العملاق الذى تميل اليه لقوته ومجونه وسخائه

أما مـدام كوتير وفيكتورين فانشغلتـا بالفتى ايجين ، تسندان رأسه الذى كان يترنح فكاد يصطدم بالمائدة أو ذراع الـكرسى . وهمت ان تأخذه مدام كوتير على كتفها ، ولـكن رأسه مالت الى كتف فيكتورين التى كانت بادية القلق عليه ، حتى لقد تحرك قلب مدام كوتير فراحت

تربت على خدها فى حنان . فقالت لها الفتاة وهى تتخلل باصابعها شعر الفتى :

— انه مع هذا لم يزد على كأسين يا أماه ...

— لو كان من مدمنى الشراب لتحمل سورة النبيذ كما تحملها الآخرون .. فسكره شاهد على براءته . . .

ودخل فوتران فى هذه اللحظة قادماً بالعربة التى ستقله مع صاحبة الخان الى المسرح ، فما رأى هذه اللوحة التى تسكونها الفتاة والفتى ، حتى عقد ذراعيه فوق صدره وصاح :

— سبحانك ربى ! هذا لعمرى مشهد خليق ان يلهم أجمل الصفحات لهذا الكاتب برناردان دى سان بيير ، مؤلف بول وفرجينى ! ان الشاب جميل يا مدام كوتير ! انظرى : أما ترين ملكا ينام على كتف ملك ؟ انى لأغبطك يا فيكتورين ، فلو كنت امرأة لتمنيت أن تتاح لى الحياة من أجله فحسب

ولم تلبث مدام فوكير أن هبطت الدرج فى زينة تظاهر فيها الجهد والتعمل ، وقد توهج وجهها لشدة ضغط المشد الكبير على خصرها الضخم ، وانصرفت تتأبط ذراع فوتران . ولم يبد على ايجين ما يدل على قرب افاقته ، فحملته مدام كوتير وفيكتورين بمعونة سيلفى الى حجرته ، فأرقدنه على فراشه ، وخلعت سيلفى عنه ملابسه ، وغطته بعناية . فلما همت النسوة الثلاث بمغادرة الغرفة ، اختلست فيكتورين من وراء ظهر مدام كوتير قبلة من وجنة الشاب المخمور . ثم شملت الحجرة بنظرة مستوعبة خاطفة ، حتى تحتفظ فى قرارة نفسها بصورة المكان الذى يعيش فيه ذنبها وفى هذه الليلة لم تنم فى باريس فتاة وهى أسعد من فيكتورين دى تايفير ..

سبق السيف العذل

وكان اليوم التالى من أبرز الأيام فى تاريخ خان فوكير . فقبل هذا اليوم لم يحدث فى هذا الخان حادث يغير من رتابة الحياة فيه خلا ظهور السكونتس المزيفة ، ولكن هذا الحادث القديم سيطويه خمول الذكر بالقياس إلى ماهو مزمع أن يحدث اليوم

وأول الظواهر الغريبة فى هذا اليوم استغراق الشاب ايجين والشيخ جوريو فى النوم حتى الساعة الحادية عشرة ، وأن مدام فوكير التى عادت من ملعب التمثيل بعد انتصاف الليل ظلت فى فراشها إلى مابعد العاشرة ، وحتى الخادم كريستوف نام إلى الضحى لأول مرة فى حياته لأنه شرب كل ما تبقى من نبيذ فوتران فلم يقدم الافطار إلا بعد موعده بكثير . وفوتران وحده هو الذي استيقظ مبكراً فخرج قبل الثامنة ثم دخل والمائدة معدة . ولكن الآنسة ميشونون كانت أول من هبط إلى القاعة وبقيت فيهاوحدها ريثما يطوف الخادم والطباخة بحجرات النزلاء لايقاظهم من نومهم الطويل . وانتهزت ميشونون هذه الفرصة فصبت فى وعاء اللبن الفضى الخاص بقهوة فوتران ذلك المخجور الذى زودها به جوندورو ، ثم بدأ تقاطر النزلاء على القاعة ،وكان آخرهم ايجين الذى وجد فى انتظاره رسولا من قبل البارونة دلفين دى نوسنجين يحمل اليه منها خطابا هذا نصه :

« لست أحب الكبرياء الكاذبة ، فلا أنكر عليك أننى انتظرتك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما تنتظر المرأة الرجل الذى تحبه ! ولعمرى إن الانسان الذى جرب مرة فى حياته هذا العذاب الأليم لايطاوعه قلبه على إذاقته لأحد ، وقد استنتجت من هذا أنك لم تحب من قبل . فاذا وقع لك فعوقك عن الحضور ؟ إن القلق عليك ينهش قلبى ، ولولا خشيتى من اثارة قالة السوء لكان حضورى للاطمئنان عليك بالأمس أقرب شىء إلى الوقوع . ففسر لى تخلفك عن الحضور . هل تشكو مرضاً ؟ أتوسل اليك أن تسعفنى بكلمة منك تشفى غليلى وتؤكد لى عزمك على الحضور فى أسرع وقت مستطاع . »

فلما فرغ الفتى من تلاوة الخطاب جعل يصيح وهو يقتحم قاعة المائدة :

— ماذا حدث لى ؟ كم الساعة الآن ؟

فأجابه فوتران وهو يضع السكر فى قهوته :

— منتصف الثانية عشرة ثم رشق الفتى بنظرة فاحصةهادئة،فوجم الفتى وإن كانت أوصاله

ترتعد غضبا . وفى هذه اللحظة سمع أمام الباب صوت عربة مسرعة وقفت فجأة وهبط منها حاجب من حجاب السيد نايفير عرفته مدام كوتير لأول وهلة ، وكان بادى الرعب ، فصاح بالآنسة فيكتورين :

— يا آنسة ، والدك يطلب حضورك حالا . لقد حل بنا خطب هائل : فقد اشتبك السيد فريدريك شقيقك فى مبارزة وأصابته ضربة سيف فى جبهته وأعلن الأطباء يأسهم من نجاته ، ونسأل الله أن تكون هناك فرصة لتودعيه الوداع الأخير . . . فانه قد فقد الوعى ودخل فى طور النزع

فهتف فوتران :

— يا للشاب المسكين ! ولكنه كان فى غاية الحمق إذ اشتبك فى هذه المبارزة . فهل يتشاجر المرء ولديه ثلاثون ألف فرنك دخلا سنويا صافيا ؟

فصاح فى وجهه ايجين :

— سيدى !

فأجابه فوتران وهو يحسو قهوته بهدوء — والآنسة ميشونون ترمق احتساءه لها بعين لا تغفل :

— ماذا تريد يابنى أن تقول ؟ أتريد أن تقول أنه لا تحدث فى كل يوم مبارزات شتى فى مدينة باريس ؟

وقالت مدام كوتير :

— سآتى معك يا فيكتورين

وأسرعت المرأتان كلتاهما إلى العربة . وقالت مدام فوكير :

— إن هذا لغريب ! فالموت يخبط خبط عشواء الليل ، فيهتبل الصغار قبل الكبار . وإنه لمن حسن طالعنا نحن النساء الا نتعرض للمبارزات . وإن كنا نتعرض لآلام أخرى لا يتعرض لها الرجل مثل مخاض الولادة . ولكن هذه الصيبة ستفيد منها فيكتورين فائدة كبرى ، سيضطر والدها لاحتضانها .

والتفت فوتران إلى ايجين وقال له :

— ان التى كانت بالأمس معدمة هاهى قد أصبحت اليوم من ربات الملايين

وقالت له مدام فوكير :

— لعمرى ياسيد ايجين لقد وضعت يدك على كنز فريد !

فنبهت هذه العبارات الأب جوريو فنظر إلى الفتى باستغراب ، فأسرع ايجين يقول لمدام فوكير فى تقزز ظاهر أثار دهشة الحاضرين :

— إننى ياسيدتى لن أتزوج الآنسة فيكتورين

وقال حاجب دلفين :

— انى فى انتظار الجواب ياسيدى

— قل انى حاضر

وانصرف الحاجب وايجبن لا يزال فى حالة عصبية فى غاية العنف فهو يحدث نفسه ويلوح بيديه ، ثم هز كتفيه أخيراً وقال بصوت مسموع :

— ولكن ماذا أصنع ؟ ليس تحت يدى أى اثبات

فابتسم فوتران ولكن ابتسامته لم تطل ، فقد سقط على الأرض بلا حراك ، فصاح إيجبن :

— حقاً ان فى السماء لعدلا إلهيا !

وصاحت صاحبة الخان مذعورة :

— ما الذى جرى للسيد فوتران ؟

فأجابتها ميشونون :

— نوبة صرع ليس غير ...

وأسرعت سيلفى لتدعو طبيباً ، وأسرع ايجبن ليناديى بيان شون طالب الطب . وتعاون كريستوف ومدام فوكير وبواريه وميشونون على حمله والصعود به الى غرفته . أما جوريو فلم يشترك معهم بل انصرف غير عابىء ليرى ابنته . وطلبت ميشونون إلى مدام فوكير أن تحضر لها زجاجة ايثير ، فخلا لهــا الميدان فنزعت قميص الرجل وضربته على كتفه فظهر طابع الايمان أبيض اللون فى وسط الموضع المحمر من أثر الضربة ، فصاحت هى وبواريه فرحا بالثلاثة آلاف فرنك ، وهى المكافأة الموعودة . وفى هذه اللحظة سمع صوت مدام فوكير قادمة تلهث وفى يدها زجاجة الأيثير ، وهى لاتملك نفسها من الجزع على العملاق المريض ...

نهـــاية عملاق

ذهب ايجين ليتنزه فى الحديقة العامة ليحاول استجماع شتات أعصابه ويراجع نفسه فيما هو مقبل عليه ، فعاد إلى ذاكرته حديث الأمس الذى دار بينه وبين جوريو ، عن ذلك المسكن العصرى الأنيق الذى أعد له ليكون عش غرام يستقبل فيه دلفين ، ويعيش فيه بدلا من النزول فى هذا الخان الحقير . وأخرج خطابها فجعل يتلوه مرة أخرى ثم قال لنفسه :

— ان حباً كهذا هو طوق النجاة لغريق مثلى — ولن أتخلى عن الأب جوريو ، فهذا الرجل يتألم فى صمت ، فسأكون له بمثابة الابن البار . وسيسعد الشيخ لأن ابنته مادامت تحبنى فستأتى ولا ريب لتمضية سحابة النهار فى جوارى فيتسنى له أن يراها . أجل ان دلفين طيبة القلب ، على خلاف هذه المتعجرفة انستازى دى ريستو . فما أسعدنى بحبها ، وان أحلامى بالوصال ستتحقق ابتداء من هذه الليلة

ثم جعل ينظر فى الساعة التى أهدتها اليه وقال :

— لقد تحققت جميع آمالى ، ولا ضير أن أقبل منها الهدايا والمعونة مادام الحب قد جعل منا شخصاً واحداً ، وطبعاً طبعاً سأرد اليها هذا كله مضاعفاً مائة مرة حينما أصل إلى مقاليد الثروة . ولا جناح علينا أن نتحاب ، فهى فى حكم الطليقة لأنها قطعت علاقتها بزوجها من زمن طويل وأوصدت دونه باب مخدعها . وعما قريب سيصبح فى امكانى أن أواجه هذا الالزاسى وأقول له : دع لى امرأة لم يعد فى طاقتك أن تسعدها !

وهكذا أقنع الفتى نفسه بأن ماهو مقدم عليه حل له ، وأن ماتورط فيه لايلحقه منه وزر ، فلما انتصفت الساعة الخامسة عاد إلى النزل الذى سيغادره بعد يومين إلى غير رجعة كى يعرف هل مات فوتران أم نجا . فوجده حين دخل واقفاً على قدميه أمام المدفأة فى قاعة المائدة التى تجمع كل النزلاء عدا جوريو ، ملهفين على تفاصيل التغير الهائل الذى طرأ على حياة فيكتورين . ولما دخل ايجين التقت نظراته بنظرات فوتران الذى ابتسم وقال للفتى وكأنه يقرأ أفكاره :

— لقد نجوت من الموت بأعجوبة ، فهل تراك آسف لنجاتى ؟

وفى هذه اللحظة سمعت ضجة يحدثها بضعة رجال وخطوات عسكرية ، ثم ظهر أربعة رجال أولهم رئيس إدارة المباحث ومعه ثلاثة ضباط صاح أحدهم بين دهشة الحاضرين :

— باسم القانون وباسم الملك !



« سجلوا أنني أقر بأني جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت »

وساد الصمت قاعة المائدة ثم تقدم الضباط الثلاثة وأيديهم على مسدساتهم إلى وسط القاعة في حين انتشرت ثلة من الجند حول جميع الأبواب والنوافذ وتقدم رئيس المباحث نحو فوتران فانتزع من فوق رأسه طاقية الشعر المستعار ، فبدت رأسه ضخمة عاطلة إلا من شعرات حمراء . وصعد الدم إلى وجهه ولمعت عيناه ببريق كبريق القط المتوحش ووثب من مكانه وثبة أطلقت صيحات الرعب من جميع الحاضرين ، فشهر الجنود والضباط عليه مسدساتهم وبنادقهم ، فأدرك أنه قد استحال عليه الفرار وأن المقاومة لاطائل تحتها ، فابتسم وأشار إلى طاقية شعره المنزوعة وقال لرئيس المباحث :

— أراك لست اليوم في أدبك المعهود !

ثم مد كلتا يديه إلى الجنود وأومأ اليهم برأسه أن يقتربوا

— ضعوا فيهما الأغلال ، وأنا أشهد الحاضرين جميعاً على أنني لن أبدى أى مقاومة

فصاح رئيس المباحث :

— اخلعوا عنه ملابسه

— ولماذا ؟ ففي القاعة سيدات ثم أنا معترف وأسلم نفسي

وتمهل قليلا وهو يدير في الحاضرين نظراته كما يفعل الخطيب حين يهم بالكلام

— سجلوا أنني أقر بأني جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت ، والمحكوم عليه بعشرين سنة مع الشغل

وعاد يتفحص وجوه الحاضرين ثم استطرد :

— من الذي وشى بي ؟

واستقر بصره على الآنسة ميشونون

— .. انه أنت أيتها العجوز الدرديس ! أنت التي دست لى هذا المخدر،وفي استطاعتي أن أجعل انتقامى يلحقك وأنا داخل السجن في ظرف أسبوع واحد . ولكنني أعفو عنك ، فأنا رجل غفور متسامح

وفي هذه اللحظة كان الجنود قد فرغوا من تفتيش حجرته وجاؤا يهمسون في أذن رئيس المباحث بكلام جعل فوتران يقلب ناظريه في وجوه جيرانه السابقين ويشكر لهم عشرتهم الطيبة ثم خطا خطوة نحو الباب مع حراسه والتفت إلى إيجين دى راستنياك فقال له بصوت رقيق يفيض أسى :

— وداعا يا إيجين ولكنني لم أتخل عنك نهائياً ، واذا حزبك أمر فهناك صديق يركن اليه أوصيته بك ، وسيفه وماله تحت أمرك

واستطاع رغم القيود التى تكبل يديه أن يقلد حركات معلم السيف ، ففهم ايجين وحده من الذى يعنيه فوتران ، فهو صديقه ضابط الحرس الذى بارز شقيق فيكتورين وقتله

وغادر فوتران مع الجنود خان فوكير إلى غياهب الليمان . وأقبلت سيلفى الطباخة ترطب عارضى سيدتها بالخل والكحول عساها تفيق من الاغماء الذى أصيبت به . وهزت الطباخة السمينة كتفيها فى أسى وقالت متحسرة :

— ومع هذا فقد كان رجلا أى رجل . .

وكر الغرام

يوم حافل !

فتاة تنقلب من الفقر المدقع الى الثراء الطائل فى طرفة عين . ورجل عملاق يصاب بالإغماء ، ثم ينكشف المستور ، فاذا هو مجرم هارب من الليمان ، وهو مع هذا يحب الفتى ايجين لغير سبب ظاهر ، ويترك له عند صاحبه توصية باعطائه كل ما يطلب من مال ، وتقديم كل ما يحتاج اليه من معونة ، ولو اقتضى الأمر أن تزهق روح !

والفتى المبهوت سيستيقظ قرب الظهر ليجد خطاب عتاب ومناجاة غرام ، وليعلم أن السعادة تنتظره إذا جن الليل ، وكان قد حسب التعلق بوصل دلفين تعلقاً بالمحال . فلا غرو أن نراه مشغولا بهذه الأحداث وما تركته فى نفسه ، وهو مستقل العربة الى جوار الأب جوريو ، فى طريقهما الى لقاء دلفين فى « عش الغرام » الجديد

وكان الشيخ ظاهر السرور ، كأن أحداث اليوم لم تنل منه :

— لقد انتهى عهد الشقاء ، وستمضى الليلة ثلاثتنا معاً . معاً ! أتدرى ما معنى هـذا ؟ معاً ! لقد انقضت أربع سنوات منذ تعشيت آخر مرة مع عزيزتى دلفين . أما الليلة فستكون لى طول السهرة ! وقد كنا معاً منذ الظهر فى بيتك الجديد ، لإتمام الاستعداد لاستقبالك فيه . تالله لقد كنت سعيداً وأنا أعمل كالفعلة الأجراء فى نقل الأثاث وتنظيفه . . . والليلة سأقبض ثمن هذا التعب ، فأنت لا تدرى مدى طيبة قلب دلفين « خذ هـذه يا بابا . فهى قطعة طرية وطعمها لذيذ ! » . . . اليوم يا صاحبى يوم فاصل

— أجل يا أبى العزيز ، فقد زلزلت الأرض اليوم زلزالها !

— زلزلت زلزالها ؟ ! كيف ؟ فلست أرى فى الشوارع إلا وجوهاً زهاها البشر ، كأن كل واحد منهم سيسعد مثلى بالعشاء مع ابنته . إنه عشاء لطيف يا ولدى العزيز ، سمعتها بأذنى تطلب أصنافه من طباخ المقهى الانجليزى . . . مع أن الصاب والعلقم يكون لها طعم العسل فى فم من يشاطرها الطعام . . . ماذا دهاك أيها الحوذى ؟ ما هذا الابطاء ؟ أسرع يا هذا . . . وسأعطيك خمسة فرنكات زيادة على أجرتك اذا بلغت بنا مقصدنا قبل عشر دقائق !

فما سمع الحوذى هذا القول حتى جعل يمرق فى شوارع باريس مثل السهم الريش . ولكن الأب جوريو جعل يتقلب فى مقعده ويقول :

— تباً لهذا الحوذى ! إنه لا يتحرك من موضعه !

ووقفت العربة أخيراً فى شارع « دارتوا » ، فنزل الشيخ والشاب وصعدا سلم بيت من داخل رحبة ، وطرقا باب مسكن يطل على الجهة الخلفية من البناء ، فلا يرى السابلة فى الطريق العام من يعيش فيه أو يطل من نافذته . ولم تكن بالأب جوريو حاجة الى طرق الباب ، لأن الوصيفة « تيريز » كانت أسرع الى فتحه . فألفى ايجين نفسه فى مسكن أنيق فاخر ، تطل حجراته الثلاث على الحديقة الخلفية . وفى الصالون الفخم الرشيق رأى على ضوء الشموع دلفين دى نوسنجين تنهض من مجلسها بجوار المدفأة ، فاحتواها بين ذراعيه وضمها الى صدره بحرارة ، وقد دمعت عيناه من الفرح . . . ومسح الأب جوريو عينيه وقال لابنته :

— أنا خبير بالقلوب . لهذا كنت واثقاً أنه يحبك أعظم الحب

وصحبت دلفين ايجين فطافت به أرجاء الحجرات ، حتى دخلت به حجرة أذكرته فى تأثيثها وترتيبها حجرة دلفين الخاصة فى بيتها ، ولكنه قال مستغرباً :

— ولكن ليس هنا سرير !

فقالت له وقد احمر وجهها ، وهى تضغط على يده بحرارة :

— أجل . . . لا سرير . . .

فأدرك مقدار وخز الحياء الذى تشعر به ، فأقبل عليها معانقاً مقبلا :

— أنت فريدة بين النساء يا حبيبتى . . وحبنا أيضاً فريد ، لهذا يجب أن نصونه عن عيون جميع الناس

فصاح الأب جوريو :

— وأنا ؟ هل أنا أيضاً ضمن هؤلاء الناس ؟

— كلا يا أبانا . . . إنما أنت « نحن » . . . ونحن أنت . .

— هذا ما أريد . لا تلقيا إلىّ بالا ، وكأننى غير موجود . لا تتحرجا أمامى . . . أرأيت يا دلفين كيف جاء اختيارى سليما ؟ إنك كنت غير مقتنعة ، ولكنى أصررت ، وها نذى تجنين ثمرة السعادة . وها أنذا قد منحتك الحب كما منحتك الحياة !

وصاح ايجين :

— ولكنى رجل فقير . ولا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء كلها ، لأنها فوق طاقتى المادية . .

فاستاءت دلفين وهتفت به :

— إن رفضك لا يحمل إلا معنى واحداً ، هو أنك غير واثق من بقاء قلبك على حبنى دون أن يتحول يوماً . . . أما إذا كنت تحبنى ، كما أحبك أنا ، فلماذا تتردد ؟ ولو عرفت مبلغ هناءتى بالإشراف على هذا البيت وتصريف شئونه ، لما ترددت لحظة واحدة . . . ثم ماذا هى

ترددك فى قبول هذه الأشياء التافهة ، وأنت تطلب منى ما هو أغلى منها ولا شك ؟ . . ولدى يحب حقيقة ويطلب المنحة الكبرى ممن يحب ، خليق أن يستهين بأى منحة أخرى بجانبها !.. أقنعه يا أبى أنت ... حتى نستطيع أن نتعشى

— اسمع يا ولدى . إنك لازلت على أبواب الحياة ، فاصغ إلىّ : هل أمامك وسيلة لدفع ثمن هذا الأثاث غير الاستدانة من المرابين اليهود ؟

— هذا هو الحل الوحيد . . .

— عظيم ! هأنتذا قد وقعت فى الفخ . أنا هذا اليهودى الذى ستقترض منه . لأنى أنا الذى دفعت أثمان كل شىء ، وهـذه هى « الفواتير » ومجموعها لا يتجاوز الخمسة الآلاف فرنك . فأنت مدين لى بهذا المبلغ الذى أقرضـك إياه . ولا يمكن أن يكون لديك مانع من هذا لأنى لست امرأة حتى تستنكف أن تكون مديناً لى . ولا بأس أن تحرر لى سـنداً بالمبلغ فى أى وقت . .

فجال الدمع فى عيون الفتى والفتاة وقد تبادلا نظرات الدهشة ، وشد راستنياك على يد الشيخ الطيب وقد عجز عن الكلام ، فقال جوريو ببساطة :

— ولم لا ؟ ألستما طفلى العزيزين ؟

فسألته ابنته وهى لا تزال مبهوتة :

— ولكن كيف استطعت يا أبى أن تسدد من وراء ظهرى هذه الفواتير ؟

— هاك : عندما رأيتك وقد استخفتك السعادة بتأسيس هـذا المسكن كأنك عروس تشترى جهاز عرسها ، قلت فى نفسى ها هى ابنتى ستورط نفسها فى عسر مالى سيكدر عليها سعادة حبها الناشىء . وقد قال لى المحامى إن إجراءات استرداد بائنتك من زوجك يلزمها ستة أشهر على الأقل . فبعت جزءا من إيرادى السنوى وسددت أثمان هذه الأشياء . وقد بقى لى من الايراد مائة فرنك شهرياً تكفينى وتفيض عنى ، فإنى سأشعر كما لو كنت أميراً متوجاً فى غرفة السطح التى تعلو هذا البيت ، ما دمت متمتعاً برؤيتكما سعيدين

فهجمت عليه ابنته واحتوته بين ذراعيها فأجلسها الشيخ على ركبته كما لو كانت طفلة صغيرة وحل يهدهدها ويداعب شعرها وخديها ، ثم صاح بها :

— إنى لم أشعر منذ عشر سنين بمثل هذه السعادة ، فلا تزيدينى منها و لا تقتلتنى فإن قلبى يكاد ينشق من سرعة دقاته ، دقات الفرح

ثم احتضنها بشدة فصاحت :

— لقد أوجعتنى !

— أوجعتك ؟

وشحب وجهه شحوباً شديداً وجعل يتأملها فى فزع ، فبهت ابنته لهذا الاخلاص الذى يصل

الى حد الهوس ، ولكنه لم يخل من إعجاب شديد بهذا الحب النادر

وأقبلت دلفين على الشاب فتخللت شعره بأصابعها وقبلت جبينه . فقال لها أبوها :

— اعلمى أنه رفض من أجلك الزواج من الآنسة تايفير وريثة الملايين . أجل يا ايجين ، إن الفتاة كانت تحبك حباً حقيقياً ، وها هى قد غدت بموت أخيها صاحبة ثروة خيالية

فصاح به ايجين عاتباً :

— ما كان ينبغى أن تقول هذا الكلام

— عفوك ! فهذا أسعد يوم مر بى منذ زواج ابنتى . والآن لا أبالى ما يجرى على به من قضاء الله ، فقد قرت عينى برؤية عزيزتى دلفين فى قمة السعادة . ماذا ؟ إننى قد تمتعت فى هذه الساعة الواحدة بمقدار من السعادة لا يستطيع أن يشعر به جميع أهل الأرض فى حياتهم طولها . والآن الى الطعام !

وانقضى الطعام فى فعال صبيانية ، فقد كان الشيخ الذى ناهز السبعين أحدث سناً فى هذه الليلة من الشابين العاشقين : فهو يرقد تحت أقدام ابنته حيناً ليقبلها ، وحينا آخر يحدق فى عينيها برهة طويلة ، أو يمرغ وجهه المتغضن المتهلل الأسارير فى هدب ثوبها . . . فقد كان الرجل مخموراً دون أن تمس الخمر شفتيه ، فهو يحب ابنته الى حد السكر بطلعتها والتملى بحديثها

وأخيراً قال الفتى :

— أرى أنه لا بد أن نفترق الليلة ، فليس هنا مكان للمبيت

— غداً سيكون كل شىء قد تم لإقامتك . ولكن لا تنس أنك ستتعشى معى فى بيتى ، لأن الليلة المقبلة من ليالى الأوبرا الايطالية

وقال الأب جوريو :

— سأذهب أنا أيضا ، ولكن فى الصالة مع عامة الناس ، حتى أستطيع أن أتمتع برؤيتكما وأنتما تزينان المقصورة

— الى غد إذن . . .

وكان الليل قد انتصف

الدعوة المشتهاة

ونحو ظهر اليوم التالى تلقى ايجين خطابا أنيقاً عليه شعار آل بوسيان ، وجد فيه دعوة موجهة الى البارون والبارونة دى نوسنجين لحضور الحفلة الراقصة الكبرى التى تقيمها الفيكونتس دى بوسيان ، ومع الدعوة رقعة بخط الفيكونتس : « لقد خطر لى أنك ستقبل عن طيب خاطر ابلاغ تحياتى الى البارونة دى نوسنجين . وانى أرسل اليك مع هذا الخطاب الدعوة التى طلبتها منى ، وأنه ليسرنى أن أتعرف الى شقيقة الكونتس دى ريستو ، فأحضرها معك ، وتقبل تحيتى » . . .

فلما تمعن الفتى فى هذه السطور أدرك ان ابنة عمه لا تميل الى حضور البارون حفلتها الراقصة فسر لهذا وأسرع الى بيت دلفين لأنه يعلم أنها ستستشعر سروراً لا مزيد عليه بهذه الدعوة التى طالما اشتهتها ولم تكن تحلم أن تحصل عليها يوما ما ، فوجدها فى الحمام ، فانتظرها فى حجرة زينتها وهو يتحرق شوقاً الى استجلاء طلعتها ، ووردت على خاطره صورته وقد أقبل من الريف منذ سنة ساذجا خاملا خجولا فقيراً منبوذاً ، فاذا هو اليوم أنيق له حظوة عند الحسان ، وله عشيقة من أجمل وأبرز نساء المجتمع الباريسى ..

ونبهته الوصيفة تيريز الى خروج سيدتها من الحمام ووجودها فى مخدعها ، فخف الى هناك ليجدها مستلقية على مقعد طويل بجوار النار وعليها غلالة من حرير موصلى ، فبادرها بقوله :

— ما تظنين أننى أحمل اليك ؟

وجلس الى جوارها وتناول يدها ليقبلها

وندت عن دلفين صيحة فرح طاغ حينما قرأت الدعوة ، وحولت الى ايجين عينين مخضلتين بالدمع وطوقت عنقه بذراعيها لتضمه الى صدرها فى نشوة عارمة من السرور الممزوج بالزهو

— اننى مدينة لك انت بهذا الهناء . اجل اننى اسمى هذه الدعوة باسم الهناء ، لأنها أكثر من نصر اجتماعى بمجيئها عن طريقك أيها الحبيب . فما من أحد رضى أن يقدمنى الى المجتمع الراقى أو البلاط حتى جئت أنت . .

— ولكن ألم يبد لك أن الفيكونتس قد أظهرت فى خطابها رغبتها عن حضور البارون معك . ؟

— أجل هذا واضح ، ولكن ماالضير ؟ سأذهب وحدى معك . ان شقيقتى ستكون

هناك . وقد نما الى أنها تستعد لهذه الحفلة بثوب رائع . إنها تتظاهر بالمرح فى هذه الحفلات فى المدة الأخيرة لتخفى سرها الهائل : فقد استدان مكسيم دى تراى مائة ألف فرنك وفات وقت سدادها وتهددته الفضيحة ، فأقدمت انستازى على بيع مجوهراتها الثمينة ، مجوهرات أسرة زوجها التى تتوارثها كونتس دى ريستو من حماتها جيلا بعد جيل . ويقال أن زوجها قد اكتشف الأمر أو كاد . فأنا أتوقع فى هذه الحفلة أن تكون شقيقتى فى أبهى زينة لتقطع ألسنة المتقولين وستجتهد على الخصوص فى ذلك لأنى سأكون حاضرة وهى تحب دائماً أن تتفوق على . ولكنى فى هذه المدة سأتفوق عليها ، ولو بنور السعادة الذى يشع من وجهى بحبك

وافترق العاشقان على موعد اللقاء الذى لا فراق بعده

وهكذا بات ايجين ليلته على ثقة من أنها ليلته الأخيرة فى خان فوكير . فلما مر الفتى بباب جوريو حاول الشيخ ان يستوقفه ، ولكن الفتى قال له وهو يمضى :

— غدا سأقص عليك كل شىء ، أما الليلة فدعنى أنام لأنى متعب ، ولأن الانتقال الى مسكننا الجديد سيحتاج الى جهد جهيد

دلفين عند أبيها

وفى اليوم التالى كان إيجين وجوريو على أتم أهبة لمغادرة الخان عند حضور حاجب من لدن البارونة يخبرهما أن الوقت قد حان . ولـكن قرب الظهر سمعت فى الشارع الهادىء ضجة عربة فارهة تقف أمام باب الخان مباشرة ، ونزلت منها البارونة دى نوسنجين وسألت إذا كان أبوها لا يزال موجوداً بالخان . فلما أجابتها سيلفى الطباخة بالايجاب أخذت تصعد الدرج فى خفة . وكان ايجين فى حجرته والأب جوريو يظنه قد غادر الخان الى المدرسة ، ذلك أنه عاد ليتأكد من أنه لم يترك · من خصوصياته فى الحجرة لم يضمه فى حقائبه . وسر كثيراً عندما وجد فى درج النضد ذلك مد الذي كان قد كتبه فوتران واسترده منه ايجين فى اليوم التالى . ولما كانت المدفأة خالية من النار فى هذا الوقت فقد فكر فى تمزيقه ، عندما سمع صوت دلفين فأنصت ليتبينه اعتقاداً منه أنه ليس لها أسرار تطويها عنه . ومن أول عبارة سمعها وجد الحديث شائقاً بحيث استمر فى الاصغاء إليه :

— الحمد لله يا أبى انك طالبت رسمياً فى الوقت المناسب فصل ثروتى الخاصة عن ثروة نوسنجين قبل أن يلحقها الخراب

— ماذا حدث إذن حتى لم تطيقى صبراً بضع دقائق أخرى نكون بعدها معاً فى شارع دارتوا

— آه يا أبى ! وهل تكون للانسان سيطرة كاملة على أفعاله وحركاته حين تلم به كارثة من الكوارث ؟ لقد طار صوابى ، فقد أطلعنا محاميك على الكارثة قبل أن يذيع خبرها بين الكافة ، فان المحامى لما رأى زوجى يقيم من الاعتراضات والعقبات المفتعلة شيئاً لا آخر له حتى لا يؤدى إليه بائنتى ، هدده بقضية مستعجلة وباقامة حارس قضائى . فدخل على نوسنجين هذا الصباح وسألنى هل أسعى إلى خرابه وافلاسه سعى مجتهد ؟ فأجبته أننى لا أعرف شيئاً عن هذه الاجراءات ، وأن كل ما أريده هو مالى الخاص الذى يجب أن يكون تحت يدى ، وأن كل ما يتصل بأمر هذا المال موكول الى المحامى . أليس هذا يا أبى ما أوصيتنى أن أقوله ؟

— أجل

— فشرح عندئذ يبسط أمامى موقفه المالى ، فقد ألقى بجميع ما تحت يده من الأموال — ومنها بائنتى طبعاً — فى مشروعات ناشئة لم تأت منها أية ثمرة بعد . فاذا ألزم برد بائنتى فى الوقت الحاضر اضطر إلى تقديم دفاتره واعلان افلاسه . فى حين أننى إذا أمهلته عاماً آخر فانه

يتعهد بشرفه أنه يرد إلىّ مالى ضعفين أو ثلاثة أضعاف . وقد لمست فيه يا أبى حرارة الصدق ، وأقبل على متوسلا مستغفراً عما سلف منه فى حقى من سوء المعاملة ، ورخص لى فى الحياة على هواى ، لا رقابة له على شأن من شؤونى أو مسلك من سلوكى ، بشرط أن أدع له حرية التصرف فى مالى باسمى . ووعدنى أن يستدعى محامينا قبل كل عمل خطير تتأثر به ثروتى . وطلب كذلك أن يظل ميزان الصرف على حاله فلا أنفق فى الوقت الحاضر أكثر مما يسمح لى به، وبرهن لى على أنه بوضعه الراهن فوق قدرته ولكن ستر الظاهر ضرورى. ومما دلنى على صدق هذا الزعم أنه سرح الراقصة التى كان يحوزها . فلما شددت عليه النكير وكابرت فى التسليم بصدقه ، قدم لى دفاتره وأطلعنى على الحقيقة المؤلمة ، ثم بكى ، وجعل يتكلم عن الانتحار وكأنه جن ، فهو يهذى ويهرف حتى أخذتنى به الشفقة

— وهل انطلت عليك هذه الخزعبلات ؟ انه ممثل . سلينى أنا فقد احتككت بالألمان فى ميدان الأعمال ، وهم فى الغالب حسنو النية مستقيمون ، ولكن إذا خطر لأحد منهم أن يستعمل الخبث تحت ستار الطيبة والصراحة ، فانه يغدو ثعلباً ذا دهاء . ان زوجك يستغل طيبة قلبك ويريد أن يستغل اسمك أيضاً كما استغل ثروتك فى أعماله المهددة بالخراب . كلا ! لن أرضى هذا لك ، فما زلت خبيراً بالتجارة عارفاً بأسرار الأعمال . انه يزعم أنه وضع جميع الأموال فى مشروعات ناشئة . فهو إذن يملك تحت يده أسهماً واتفاقات فى مقابل هذه الأموال. فليقدمها إذن وليحول إلينا نصيبك منها بحسب ما يخصك . وأعدك أن أختار أحسن هذه الأسهم وأكثرها ضماناً . أم هل يظن بنا الغفلة وقصور العقل ؟ أم تراه يحسبنى أصبر يومين لا عابئ على تركك بلا مال وبلا سند فى الحياة ؟ هذا أمر لن أقبله أبداً ، أم هل ترانى أكدح أربعين سنة مديدة لكى ينتهى الحال بترككما مجردتين من ضمان لقمة العيش،ولكى أرى كل هذا التعب والاجتهاد يتبدد أمام عينى كما تتبدد حلقة من الدخان ؟ وانى لأقسم بكل مقدس فى الأرض والسماء اننى سأسوى الأمر معه بما يصون مصالحك ويرد عنك شره هذا المحتال . سأراجع دفاتره ، ولن يغمض لى جفن أو أهنأ بطعام أقيم به أودى قبل أن أتحقق من صيانة أموالك كاملة. وإذا لم تسعفنى المحاكم التجأت إلى البرلمان . سأقلب الدنيا قبل أن أسلم لحظة واحدة بتجريدك من هذا المليون الذى شقيت طول حياتى لأوفره لك . يا إلهى ! إن ناراً حامية تستعر فى صدرى وأحشائى ، وكأن حريقاً هائلا قد شب فى دماغى . دلفين ابنتى لا تملك شروى نقير ؟ كلا وربى ! أين قفازى ؟ هيا بنا ! هيا بنا لنطلع على الدفاتر الآن ونضع يدنا على المراسلات والخزينة ونفحص كل شىء فى الحال . فلن أعرف للنوم طعماً قبل أن أطمئن عليك . هيا قبل أن تسنح الفرصة ليهرب بما اختلسه من مالك ، لأنه موقن أنى لن ألطخ بالوحل ذلك الاسم الذى تحمله ابنتى

— مهلا يا أبى ! إنى أشفقت عليك ولم أصارحك بكل شىء . أتدرى ماذا فعل هذا الوغد على التحقيق ؟ أتدرى ما هذا الذى يسميه مشروعات ناشئة لا تزال عقيما ؟ انه يشترى الأرض

الفضاء باسمي ثم يبنى فوقها بيوتاً تحت ستار أشخاص آخرين يتعاقدون مع المقاولين على تسديد التكاليف على آجال طويلة ، ثم يبيعون زوجي البيوت بعد أن تتم بثمن بخس ، ويعلنون بعد ذلك افلاسهم للتخلص من ديونهم قبل المقاولين . أما المبالغ ذات القيمة التي تحت يده فانه يشترى بها عقارات وأسهما باسمه خارج البلاد ، بحيث لا تصل إليها أيدينا

وفي هذه اللحظة سمع إيجين صوت سقطة قوية ، فقد انهار الأب جوريو على أرض غرفته وهو يصيح بصوت متحشرج :

— وا رحمتاه لك يا ابنتي ! لماذا رضيت أن أسلمك لهذا الوغد الذي اعتصر دمك واشقاك ؟

— وهل تدرى يا أبي المعنى الذي قصد إليه بتنحى الحرية ؟ انه يعني بذلك مساومتي على ترك الحبل لي على الغارب في علاقتي بإيجين في نظير تخويلي اياه المضي في استغلال ثروتي . فهو يريدني أن أدفع هذا الثمن إذا شئت إلا أعتقل في البيت فلا أتصل بإيجين . ولكن لماذا تلوم نفسك الى هذا الحد ؟ ان الخطأ خطئي أنا لأنني أنا التي تخيرت هذا الزوج ، فلا تبك يا أبي

— ولا تبكي أنت أيضاً يا دلفين . قربي عينيك حتى أجفف دمعهما بشفتي . هه ! انهضي لأستعد لمصاولة هذا النصاب

— بل دعني أنا أتصرف في الأمر ، فهو يحبني وأنا مستطيعة أن أستغل سلطاني عليه لاستخلاص جزء من حقي . ولكن تعال غداً لتطلع على الدفاتر ، فالمحامي لا يفقه شيئاً في الأساليب التجارية . بل ليس غداً ، فاني لا أريد أن أكدر دمي في اليوم السابق للحفلة الراقصة الكبرى عند الفيكونتس دي بوسيان ، بل أريد أن أبدو جميلة سعيدة في صحبة عزيزي ايجين. فهيا بنا لأرى حجرته ...

المصائب لاتاتى فرادى

ولكنهما لم يتحركا من موضعهما،لأن صوت انستازى دى ريستو سمع فى السلم،وهى تصعدها نهباً إلى حجرة أبيها ، فأنقذ حضورها فى هذه اللحظة ايجين من انكشاف وجوده فى حجرته وسماعه هذا الذى سمع

فلما سمعت دلفين صوت أختها ، قالت لأبيها :

— آه ! ألم يبلغك شىء عن انستازى ؟ فانه يخيل إلى أنها تعانى متاعب هى أيضاً فى بيتها

— ماذا تقولين ؟ هذا فوق ما أحتمل . ان هذه تكون ثالثة الأثافى وقاصمة الظهر ! أما تأتى المصائب أبداً فرادى ؟

ودخلت الكونتس ، فأدهشها أن تجد دلفين عند أبيها فى هذه الساعة ، وشعرت بشىء من التحرج والضيق . فقالت لها دلفين :

— أهلا « نازى » ... أيدهشك أن ترينى هنا ؟ لاتستغربى هذا ، فانى أنا أراه يومياً ولا أقصر فى ذلك !

— منذ متى ؟

— لو كنت تأتين لزيارته ، لعرفت منذ متى ...

— دعى المناكفة بالله يادلفين فانى امرأة شقية ... أدركنى يا أبى ، فقد قضى على القضاء الأخير هذه المرة

— ماذا ألم بك يا ابنتى ؟ صرحى بكل شىء ، وأنت يادلفين تلطفى معها ، فيجب أن نتعاون فى وقت المحنة ... فان هذا يجعلنى أحبكما أكثر مما أفعل ، لو أن هذا فى الامكان !

فقالت دلفين وهى تربت على أختها وتساعدها على الجلوس :

— تكلمى يا « نازى » ، فأمامك الشخصان اللذان يحبانك فى هـذه الدنيا حباً خالصاً لاشعبة فيه ولا زغل ...

وقربت من أنفها « الأملاح » حتى يفرخ روعها ، فلما استردت هدوءها قالت فى أسى :

— سأموت يا أبى ! ان زوجى يعلم كل شىء . أتذكر يا أبى ذلك الدين الذى كان مستحقاً على مكسيم منذ مدة ؟ انه لم يكن الأول من نوعه ، فما أكثر « الشيكات » التى يحررها وليس مقابلها مايغطيها ... وكم من مرة قمت بدفع قيمتها . ومنذ أكثر من شهر بدا لى مكسيم كثير

الشرود ، ولكنه لم يصرح لى بشيء ... بيد أن المرأة تحذق قراءة سرائر الذين تحبهم . ثم انى لاحظت مبالغته فى الرقة والتوله .. فالمسكين كان يودعني بهذه الرقة الوداع الأخير ، لأنه كان عازما على إفراغ مسدسه في جبهته . فشددت عليه ، وضيقت الخناق ، حتى اعترف لى بالحقيقة بعد أن ظللت راكعة على ركبتي أمامه ساعتين ، أتوسل ، وأبتهل ! فهل تدرى كم فرنكا قيمة الشيك الذى حرره بلا رصيد ؟ مائة الف فرنك ! فجن جنونى يا أبى ، فلست تملك هذا المبلغ ، لأنني أتيت على كل ما كان باقياً لديك من ثمالة ثروتك ...

— أجل يا ابنتى، ليس معى هذا المبلغ ، ولا طاقة لى بالحصول عليه ، اللهم إلا إذا سرقته ... ولكنى كنت مستعداً أن أسرقه .. وسأسرقه لك إذا شئت !

وأمام هذه الصيحة التى لاتنبعث إلا عن قلب استبد به الألم ، ووقف بصاحبه على أبواب الجنون ، وجمت المرأتان ، وقد تحرك قلباهما لهذا الشقاء المبرح الذى أورثتاه والدهما المعطوف .. ان كارثتهما هى التى سببت له هذا ، فندت عنه هذه الصرخة التى كأنها حجر ألقى به فى هوة بعيدة الغور ، فكشف عن مبلغ عمقها البعيد ...

وقالت له انستازى وهى تنخرط فى البكاء ...

— لقد فعلت أنا هذا بدلا عنك يا أبى : فقد نشدت هذا المبلغ بالتصرف بما ليس ملكا لى!

فاحتضنت دلفين أختها وبكت على صدرها وهى تصيح :

— وا أسفاه ! إذن كل ماقيل صحيح ..

وتأثر والدهما لهذا التعاطف الذى جاء متأخراً فصاح بهما :

— لماذا لم يجتمع قلباكما يا ابنتى إلا على خطب دائم ؟ ..

واستطردت الكونتس وهى تخفف دمعها عبثا :

— .. فلكى أنقذ مكسيم من الفضيحة والعار ، وأنقذ حياته من الانتحار ، ولكى أنقذ هنائى المعلق بشخصه ، جمعت مجوهرات أسرة ريستو ، التى قدمها لى زوجى لاتحلى بها فقط ، وحملتها إلى مراب يهودى قاسى القلب ، يدعى « كوبسك » ، و ... بعتها ! بعتها وأنقذت حياة مكسيم . . . ولكننى وضعت حياتى أنا تحت الخطر بدلا منها . فقد عرف ريستو كل شيء . .

فصاح جوريو محنقاً :

— من الذى قال له ؟.. من هو ؟ سأقتله !

— .. بالأمس دعانى لموافاته فى حجرته ، فلما ذهبت قال لى بصوت بارد كالثلج : « أين المجوهرات ؟ » فقلت له « عندى . فى دولابى » فأجابنى بنفس الهدوء القاتل : « كلا ! انها هناك ، فوق هذا النضد ! » ونظرت فاذا هى موضوعة تحت منديل غطاها به ، وقال لى : « وانت تعرفين طبعاً من أين أحضرتها الساعة » : فسقطت تحت قدميه على ركبتى باكية ، وقلت

له أنني أمته ، وأن له أن يختار لي الميتة التي يرضاها ..

— أقلت له هذا حقاً يا ابنتي ؟ أقسم برب العزة والجبروت أن من مس شعرة واحدة من شعر رأسك ليدفعن ثمنها حشاشة روحه ! إنني أقطعه اربا اربا مثل ...

واقتتلت الكلمات على فم الشيخ الهائج بالغضب ، فسكت ، وقالت بنته :

— بل هو قد طلب مني ما هو أقسى من الموت وأدهى . . . ولا كتب الله على امرأة في الدنيا أن تسمع مثل هذا الذي سمعت منه على كره مني

— سأقتل هـذا الرجل ! سأخنقه بيدي ! سأقطع أوصاله ! ولـكن الملعون ليست له إلا حياة واحدة تزهق . تمنيت لو أن له مائة حياة لأزهقها كلها واحدة بعد واحدة !

— لقد نظر إلى برهة وهو صامت ثم قال لي : اسمعي يا انستازي ، انى مستعد أن أجر على ما حدث ذيل الصمت ، فنبقى معا ، فان لنا طفلين يحملان اسمنا . وسوف لا أقاتل مكسيم دى تراى لأن المبارزة قد تؤدى إلى قتلي ، وإذا قتل هو تعقبتنى سلطة القانون ، واما قتله وأنت في أحضانه فانه يلطخ اسمى واسم أسرتى بالعار . فابقاء عليك وعلى الطفلين وعلى أنا أعرض عليك شرطين . فهل في هـذين الطفلين ولد من صلبي ؟ فقلت له : « أجل » فسألنى: « أيهما ؟ » فأجبته : « ابننا البكر أرنست » فقال : « حسناً ! والآن اقسمى أن تطيعينى في أمر واحد » فأقسمت ، فقال : « عليك أن توقعى عقد بيعك كل ماتمتلكين لمصلحتى متى طلبت اليك ذلك »

— لا توقعى ! لاتقبلى هذا أبداً ! ماذا إذن يا سيد دى ريستو ! ماذا تظننا ؟ وماذا تظن نفسك ؟ انك لاتعرف كيف تسعد امرأة ، فاذا نشدت السعادة حيث وجدتها ذهبت تعاقبها على عجزك . ولـكننى هنا وقف عند حدك لأننى واقف لك في الطريق ! أجل يا ابنتي ، اهدئى بالا ، فانه قد عرف الآن وريثه ، ولـكنى سأخطف هـذا الوريث ، سأخطف ابنه ، الذى هو للأسف حفيدى ، فأخفيه في قريتى ، ولـكن لاتخافى ! فسأحافظ عليه كنور عينى ، ثم اضطره إلى رفع الراية البيضاء بأن أقول له : « إذا أردت استرداد ابنك ، فأعد إلى ابنتي جميع ممتلكاتها ودعها تحيا على هواها »

— أبى العزيز !

— نعم نعم أنا أبوك العزيز ! أبوك بمعنى الـكلمة ! أيظن هذا النبيل أنه مطلق التصرف في حياة ابنتي ؟ يا للسماء ! لست أدرى ماهـذا الذى يسرى في عروقى كالحميم ! إنى أحس كما لو كنت قد انقلبت نمراً هائجاً . ولا عجب فأنتما عندى الحياة كلها . ولـكن ماذا عساكما تفعلان حين يطوينى الموت ؟ ربى ، لماذا لاتطيل عمر الآباء ماطالت أعمار بنيهم حتى يحوطوهم بالرعاية حتى النهاية ؟ إن الآباء قلوبهم متعلقة ببنيهم فكيف سمحت رحمتك أن تسوءهم فيهم بمكروه ينزل بهم ؟ آه يا ابنتي ! هاأنتما تجتمعان بى أخيراً كما كنا في العهد الخالى قبل أن يفسد الاصهار

حياتى . ولكنى واأسفاه مدين للخطوب والنوازل بهذا الاجتماع ، فلا أحظى برؤيتكما إلا والدمع يخضل وجنتيكما ! ولكن لاعليكما ، فان قلبى كبير ويتسع لآلامكما وفى استطاعته أن يحملها عنكما . ماذا ؟ بل انكما لو حطمتما قلبى لصلحت كل قطعة متناثرة منه أن تكون قلبا أبويا ينبض بحبكما ويألم لكما

— ولكن هذا ليس كل شىء يا أبى

— أهناك شىء آخر أيضا يا انستازى ؟

— أجل . فانى لم أتمكن من بيع المجوهرات بمائة الف فرنك كاملة ، فأقيمت الدعوى على مكسيم وان لم تنظر بعد ، فلا يزال ينقصنا اثنا عشر ألف فرنك . وقد وعدنى أن يقلع عن الميسر . وأنت تعلم أنه لم يبق لى فى الدنيا إلا حبي له ، فلا أطيق أن أحرم منه بعد أن دفعت ثمنه غالياً من راحتى وثروتى وسمعتى وأمن سربي ، بل وأولادى . فاجتهد يا أبى فى إنقاذ حريته وشرفه حتى يتسنى له أن يكون لنفسه ثروة من جديد ، فلا يخرج ابننا إلى العالم مجرداً من كل درهم ، لأن ريستو سيحرمه من ميراثه كله ولامراء

— وا أسفاه ، لست أملك هذا المبلغ . فلم يبق عندى شىء يساوى هذه القيمة ، فليس لى إلا مايمدنى بدخل لايزيد على ألف ومائتى فرنك فى السنة مدى الحياة

— وأين ذهب ايرادك الدائم ؟

— بعته غير محتفظ إلا بهذا الشىء البسيط لحاجاتى الضرورية فقد احتجت إلى اثنى عشر ألف فرنك لتأثيث وكر صغير لدلفين

— فهمت . من أجل دى راستنياك اذن . ياشقيقتى المسكينة ، اتعظى بما حدث لى ودعى هذه النزوات

— ولكن دى راستينياك يا أختاه شاب مهذب لايقدم على تحطيم حياة عشيقته

— شكراً لك يادلفين ، فقد كنت أتوقع فى محنتى أن تكونى ألطف من هذا ، ولكنك لم تحبينى قط

— وهل أنت التى تحبيننى ؟ ألم تطارديني بدسائسك فى كل مكان وتعملى على إغلاق جميع الأبواب فى وجهى ؟ وهل كنت أنا آتى الى أبى كل يوم لأبتز منه ألف فرنك فى إثر ألف فرنك حتى أتيت على جميع ما كان يدخره وانتهيت به الى هذه الحالة ؟ هذا عملك يا أختاه وفعل يدك . أما أنا فكنت أحضر لرؤيته لغير غرض ، ثم انا لم أعلم الا فى هذه اللحظة أنه انفق فى سبيلى هذه الاثنى عشر ألف فرنك . ثم ليس من عادتى اذا أهدانى أبى شيئاً أن أبدده وأبيعه

— أنت تقولين هذا لأن عشيقك دى مارساى شاب غنى لم يكلفك شيئاً . وداعا ، فليس لى فى الدنيا أخت ولا . . . .

فصرخ الأب جوريو :

— اخرسى . . ماذا جرى لكما حتى تتخاصما هكذا أمامى ، أتريدان أن تقضيا على القضاء الأخير ؟ ! . . .

— انى أغفر لك يا نازى ، فأنت مسكينة شقية . . لهذا لا أحاسبك على جميع ماسلف منك فى حقى من المكائد طيلة السنوات التسع الماضيات

— يا بنتى العزيزتين ، تعانقا وتصافيا فكلا كما ملك كريم . فصاحت الكونتس معرضة وهى تدفع عنها يد أبيها :

— كلا .. دعنى . . أنها أقل رحمة بى من زوجى نفسه

— يا أختى انى أفضل ألف مرة أن تتقولى على بأنى مدينة لدى مارساى من أن يقال عنى أن عشيقى دى تراى كلفنى مائتى ألف فرنك كما كلفك

وهنا ابتدأ الشجار ينتقل من التراشق بالألفاظ الى الرغبة فى التماسك بالأيدى . فاندفع الأب جوريو يحول بينهما ، ثم أخذ الكونتس بين ذراعيه ليهدىء روعها ، ووضع كفه على فمها ليمنعها من الاسترسال فى سب أختها ، فاذا بها تصيح به فى اشمئزاز :

— ما هذا يا أبى ؟ ما هذه الرائحة العالقة بيدك ؟

فخجل الرجل الطيب وأخذ يعتذر اليها قائلا وهو يمسح يديه فى بنطلونه :

— لا تؤاخذينى ، فما كنت أعلم أنك آتية فى هذه الساعة ، وكنت منهمكا فى ترتيب حوائجى . . !!

وكأن الرجل قد سر بتحول جانب من غضب ابنته اليه . أما دلفين فرأت لما هدأت أمارات الألم المبرح مرتسمة على وجه شقيقتها . . فقالت لها فى إخلاص :

— سامحينى يا أختاه فقد أخطأت .. تعالى قبلينى

وتعانقت الفتاتان فسرى عن الرجل ما كان يجده . وعاد الى التفكير فى مشكلة بنته الكونتس فأخذ يجذب شعر رأسه ويقول :

— آه لو كنت أعلم مكانا أسرق منه هذا المبلغ ، ولكن حتى السرقات أصبحت عسيرة فى هذه الأيام .. لم يبق إذن إلا أن أموت ، ما دمت قد بت ولا نفع فى لبنتى . ابنتى تحتاج الى شىء وتطلبه منى ولا أستطيع ان أقدمه لها ؟ ما قيمة الحياة بعد هذا ما دمت لم أعد أباً صالحاً . ! !

وأخذ يدق رأسه بكلتا يديه كمن به مس . فأقبلت ابنتاه عليه تمنعانه وتحاولان تهدئته ، فأنشأ يبكى . فما كان من ايجين الذى كان لا يزال واقفاً فى غرفته يتسقط السمع إلا ان تناول أمر الصرف الذى كان فوتران قد أعطاه إياه ، وصحح الرقم لجمله اثنى عشر ألف فرنك لأمر السيد جوريو ، ودخل حجرة الشيخ فوجه الخطاب الى الكونتس دى ريستو قائلا :

— هذا هو المال الذى تطلبينه يا سيدتى . فقد كنت نائماً فأيقظتنى مناقشتكم الحسابية ، وعرفت منها القيمة الحقيقية للمبلغ الذى يدينى به السيد جوريو . وأنى أعد بشرفى أن أدفع المبلغ ، فهو ممكن التحويل لأي مصرف

فرمقت الكونتس شقيقتها بنظرة صاعقة وقالت لها :

— أستطيع أن أغفر لك كل شىء يا دلفين إلا هذا . كيف تعلمين أن السيد ايجين موجود فى الحجرة المجاورة ثم تستدرجيننى لكى أبسط أسرارى وتفاصيل حياتى الخاصة ، والسر الذى يكتنف مولد طفلى ، والعار الذى يحيق باسمى ؟انى أكرهك وألعنك ..

وسكتت، لأن حلقها كان قد جف من شدة الغضب والغيظ فأسرع الأب جوريو يترضاها ويقول لها :

— ولكنه ابنى وأخوك ومنقذك . قبليه إذن . انظرى إلى كيف أحتضنه الآن وأقبله . يا ولدى العزيز : سأكون لك أكثر من أب . ولو كانت بيدى الشموس والكواكب لطرحتها تحت قدميك . تعالى يا انستازى قبليه فهو ليس بشراً ، ان هو إلا ملك كريم

ووقفت الكونتس ترمق الفتى فى صمت كأنها تستطلع طلعه . فقال لها فى أنفة وصدق :

— سيدتى . . ثق أننى سأدفع وسأسكت

وفى هذه اللحظة صرخت دلفين ، لأن الشيخ كان قد سقط على الأرض فى شبه إغماء ،فلما حلوا أزرار قميصه ورأى لهفتهم جعل يقول انه بخير ، وأنه طارىء بزول وشيكا ، فكل ماهنالك أن شيئاً يضغط على جبهته ويسبب له دوارا . ثم تمتم :

— همى كله من أجل نازى . يا للبنت المسكينة . . فانى مشفق عليها من غوائل المستقبل المظلم تصافيا يا بنتى . .

وصاحت انستازى :

— لا أستطيع أن أصفح عنها . لن أنسى لها هذا . ولكن هلا وقمت يا أبى على هذا الاذن حتى أستطيع صرف قيمته ؟

— ماذا دهانى حتى نسيت ؟ ولكن اعذرينى فقد فاجأنى هذا العارض . وثقى أنى سأذهب بأول فرصة لأقوم بما يجب نحو صيانة مصالحك من هذا الزوج الغليظ القلب . هاك توقيعى فاذهبى الآن وارسلى إلى خبراً أن المسألة سويت . وحاولى ان تلزمى مكسيم جادة العقل

وبهت ايجين لهذا الحنان المفرط . فلما انصرفت انستازى أقبل على الأب جوريو فرفعه الى الفراش وجعل يتلطف معه ..

— بماذا تشعر الآن ؟

— برغبة شديدة فى النعاس

ولم يلبث الشيخ أن نام وفى يده كف دلفين . فلما استغرق فى النوم سحبت يدها واستأذنت

فى الانصراف ، ولكنها رغبت أولا فى مشاهدة حجرة ايجين التى سيبقى فيها ليلة أخرى بعد أن حالت حالة أبيها دون النقلة الى المسكن الجديد هذه الليلة

— رباه . انك أسوأ حالا من أبى المسكين . ولكنى فخورة بك مع أختى ، وسأحبك من أجل هذا أكثر وأكثر .. ولكن إذا أردت أن تكون لك ثروة فى يوم من الأيام فلا تبذر على هذا النحو واعلم أن مكسيم مقامر كبير لا يستحق المساعدة ، وكان عليه أن يدبر هذا المال بوسائله الخاصة

ونمت إليهما أنة فأسرعا الى غرفة الأب جوريو ، فوجداه نائماً فى ظاهر الأمر ولكن عندما اقتربا سمعاه يتمتم :

— إنهما ابنتا سعيدتين !

فأقبلت عليه دلفين تسأله عن حاله فقال :

— لا تقلق ، فبعد قليل سأنهض وأخرج . اذهبا أنتما واغنما لذاذات الحياة

وصحب ايجين دلفين الى دارها ، ولكنه رفض مشاركتها طعام العشاء متعجلا العودة ليطمئن على صحة الشيخ المسكين ..

بداية النهاية

ولكن متاعب الأب جوريو لم تمنع ايجين من موافاة دلفين فى الاوبرا الايطالية ، ومن الاستمتاع بالسهرة معها ، ومن العودة معها إلى مسكنه الجديد حيث شربا من كأس الهوى إلى أن فارقته دلفين فى الثانية صباحا لتعود الى بيتها . وكان هو مجهداً فآثر قضاء الليل فى هـذا المسكن ، ولم يصح من نومه إلا قرب الظهر حين وافته دلفين لترشف رشـفة أخرى من نبع الغرام ، وتتغدى مع حبيبها . فقد نسى الشاب فى ثورة الأعصاب المتشوقة للهوى أن الشيخ جوريو يشكو منذ الأمس ، وأنه وحـده وليس من يرعاه ، فلم يذهب ايجين لزيارته إلا بعد الرابعة مساء . فلما دخل قال له أحد النزلاء ان حالته زادت سوءاً وان بيان شون طالب الطب ملازم له ، وان الكونتس زارته مرة أخرى فلبث مهتاجا ثم ارتدى ملابسه وهم بالخروج فأغمى عليه ، فأسرع ايجين يصعد السلم ، ولـكن نادته مدام فوكير :

— كان من المتفق عليه أن تخليا حجرتيكما فى ١٥ الجارى . وها نحن أصبحنا فى يوم ١٨ . فيجب أن تدفعا لى الشهر الجديد كاملا . ولست أقول هذا من أجلك أنت ، فاذا ضمنت لى الأب جوريو فان كلمتك تكفيني

— ولماذا ! لم لاتثقين به ؟

— أثق ؟ وإذا مات من يدفع لى الأجر ؟ إن بنتيه لن أظفر منهما بدرهم واحد . ولم يبق لديه من المتاع مايغطى حقى

— أنا المسئول عن كل شىء

وأسرع يصعد السلم وهو يرتعد رعباً ، فوجـد الأب جوريو فى فراشه يئن وإلى جواره طالب الطب . وابتسم الشيخ حين رآه وسأله :

— كيف حالها ؟ هل تمتعت بليلتها ؟

— هى بخير . . وكيف حالك أنت ؟

— لابأس

فانتحى بيان شون بايجين جانبا وقال له ان الشيخ لن ينجو إلا بمعجزة فلا تتعبه بكثرة الكلام. ثم ان نقله مستحيل لأنه يجب أن يجنب كل مجهود جسـدى أو عصبى . وقد دعوت له مدير مستشفانا ولـكنه بعد الفحص قال ان لايمكن أن يدلى برأى قاطع قبل الغد

— ودن دعني معه قليلا واذهب أنت لتناول عشائك

فلما خرج بيان شون سأل ايجين الأب جوريو عن سر حضور انستازي اليه في الصباح الباكر

— يالمسكينة ! لقد حرمها زوجها المتوحش من كل درهم منذ حادثة الجوهرات . وكانت قد أوصت من أجل الحفلة الراقصة على ثوب رائع ، ولكن حائكتها لم تقبل امهالها الدفع بعد أن شاعت قصة الجوهرات . فتقطع قلبي وجمعت الفضيات التافهة التي كانت باقية لي ، وكنت آكل فيها ، فنزلت وبعتها وأعطيتها قيمتها حتى تستطيع أن تتسلم ثوبها وتفرح بلبسه في الحفلة ، ثم هي متعلقة بالذهاب لتنفذ رغبة زوجها الذي يريدها أن تظهر متحلية بالجوهرات التي شاع أنها باعتها حتى تسكت الألسنة المتخرصة . ولم تكف الفضية لوفاء الألف فرنك المطلوبه فبعت ايرادي هذا العام بأربعمائة فرنك تدفع مقدما ، انى أستطيع أن أصوم أو آكل الخبز القفار ، أما طفلتي المسكينة فكيف تستطيع أن تتحمل ألم الحرمان من ليلة سعيدة ؟

— كفى كلاما وأنت متعب . نم واسترح ولا تتكلم

ولما صعد بيان شون هبط ايجين ليتعشى ، ثم تناوبا معا السهر على فراش المريض ، وفي الصباح قال بيان شون ان الحالة لم تزدد سوءاً . وفي الساعة السابعة مساء جاءت تيريز وصيفة دلفين بخطاب من سيدتها هذا نصه :

« ماذا تصنع ياصديقي العزيز ؟ وماذا شغلك حتى هجرت حبيبتك وأنتما بعد في بداية غرامكما الملتهب ؟ لا أنسبك إلى التقلب وغدر العهد ، فأنت أوفى الناس . ولكن لاتنس أنني أنتظرك الليلة لنذهب معاً إلى حفلة مدام دى بوسيان الراقصة . وبهذه المناسبة اعلم أن اذن زواج الماركيز داجودا ونعمه الملك اليوم وقد علمت الفيكونتس ذلك في الساعة الثانية ، فلا ريب أن كل من في باريس سيذهب إلى حفلتها الليلة ليرى ماذا هي صانعة ، كما تزدحم الجماهير في الميدان العام لتشاهد تنفيذ حكم بالاعدام ... أليس هذا مؤلما ؟ انني لم أكن لأذهب لولا أن هذه أول دعوة أتلقاها منها ، ثم هي لن تقيم حفلات بعد اليوم فيما أعتقد . وهناك كذلك متاع مصاحبتك الذي لا أحب أن يفوتني . فاذا لم أجدك بجواري بعد ساعتين فلا أظن أنني سأغتفر لك هذا الهجران »

فتناول ايجين قلماً وكتب اليها يقول :

« أنا الآن في انتظار حضور طبيب سيقرر هل يمكن أن يعيش والدك أم لا ، فحالته سيئة جداً ، وسآتي لأحمل اليك قرار الطبيب وإن كنت أخشى أن يكون بالغ السوء ، وعلى ضوئه يمكن أن تقرري الذهاب الى الحفلة الراقصة أو الاعتذار عنها ، قبلاتي »

وجاء الطبيب بعد الساعة الثامنة ، وكان رأيه أن المريض ميؤوس منه ، ولكن مرضه قد يطول ، وأن حياته تتوقف على عدد النوبات ومبلغ عنفها . فترك ايجين المريض بين يدى بيان شون وذهب ليحمل الى دلفين هذه الأخبار المؤلمة التي كان يقدر أنها ستقضي على كل اهتمام لديها بالمسرات الاجتماعية . وفيما هو يهم بالخروج تنبه الأب جوريو فصاح به :

— قل لها تتمتع بالحفلة والرقص كما ينبغى

وذهب ايجين وحالة الشيخ تدمى قلبه فوجد دلفين متزينة متعطرة ، لا ينقصها إلا ارتداء ثوب الرقص ، فصاحت به :

— ما هذا ؟ ألم تلبس بعد ثوب السهرة ؟

— ولكن والدك يا سيدتى . . .

— أبى أبى أبى ! أتراني بحاجة الى أن أتلقى منك دروساً فيما ينبغى علىّ لوالدى ؟ كلا . لا تتكلم ! لن أسمع منك شيئاً إلا بعد أن ترتدى ملابسك . فتيريز وصيفتى قد أعدت لك كل شيء فى مسكنك الجديد ، فخذ عربتى واذهب الى هناك وتعال بها على عجل ، أما أبى فلدينا متسع ونحن فى الطريق الى الحفلة الراقصة للكلام عنه . فالزحام سيكون شديداً ولا بد أن نذهب فى وقت مبكر

— سيدتى ...

— اذهب قلت لك ولا تنطق بكلمة واحدة

فذهب الفتى كما أشارت عليه وعاد وهو فى أشد حالات السخط والأسى ، حتى لقد تمثل له العالم محيطا من الوحل اذا انزلقت اليه قدم إنسان غرق حتى الآذان ، وبدا له هذا الجحود وقد هانت فى جانبه كبائر فوتران ، ففى فوتران أريحية لا وجود لها عند هؤلاء المترفات من ربات الخدور وربيبات القصور . وتكشفت له حقيقة عشيقته الجميلة الرقيقة ، فعرف أنها لا تحجم عن وطء جثة أبيها اذا لم يكن هناك طريق آخر الى حفلة راقصة تبهر فيها الأنظار . . . وعجب لنفسه أنه لا يزال بعد هذا يحبها ، بل ويلتمس لها المعاذير من جهلها بحقيقة حال والدها

فلما استقلا العربة الى قصر الفيكونتس دى بوسيان التفتت اليه وسألته عن أبيها وحاله :

— شر حال يا سيدتى . ويا حبذا لو مررنا الآن لعيادته

— سنعوده طبعا ولكن بعد الحفلة ، فلا تكن متزمتا

فوجم الفتى ، فسألته :

— ما بك ؟

— إن أنين أبيك يرن فى أذنى

ثم أخذ يقص عليها بطلاقة تفاصيل ما وقع لأبيهـا وزيارة أختها له وما سببته له من نوبة قلبية توشك أن تودى به من أجل ثوب تبدو به فى حفلة الليلة . فدمعت عينا دلفين وقالت :

— لقد أبكيتنى ، وأخشى أن يقرح البكاء أجفانى فأبدو فى الحفلة قبيحة الشكل ، و توم برأسى الآن أن أذهب فألزم فراش أبى

— مرحى ! هكذا أملى فيك

ولكن مصابيح العربات الخمسمائة التي تتجه الى قصر دى بوسيان أخذت تتلألأ أمام عيني دلفين ، فقالت :

— سأذهب ، ولكن بعد الحفلة

وكانت الفيكونتس تستقبل المدعوين بكل بشاشة واتزان ، وقد أفلحت كبرياؤها في إخفاء حزنها الوجيع ، فغدت كأنها ملكة من ملكات الزمان الخالي ، أو كأنها فارس من فرسان الرومان يلقى الموت أمام الجماهير ويصارع الوحوش باسم الثغر . فلما رأت الفيكونت ايجين داخلا رحبت به بحرارة وأخبرته أنها بحاجة اليه ، ثم تأبطت ذراعه الى أريكة بقرب رجال الموسيقى وقالت له :

— اذهب الآن الى دار المركيز ، وسيصحبك جاك الوصيف الى هناك ويعطيك خطابا تسلمه الى المركيز أطلب اليه فيه أن يرد الى جميع خطاباتي وأنا واثقة أنه سيسلمها اليك جميعها . فاذا أعطاكها فاصعد الى حجرتي الخاصة وأرسل في طلبي

ونهضت كأنها لم تكن تنبش جراح قلبها الدامية لتستقبل صديقتها الدوقة دى لانجين التي وصلت في هذه اللحظة . وذهب ايجين حيث أمرته ، فألفى المركيز عند آل روشفيد أنسبائه ، فصحب المركيز الى قصره وسلمه صندوقا مقفلا وقال له :

— خطاباتها كلها بداخل هذا الصندوق

وكان يبدو على المركيز أنه يريد أن يقول لإيجين شيئا ، لعله السؤال عن الفيكونتس وعن مدى احتمالها الصدمة ، ولكن كبرياءه حالت دون ذلك ، فقال لإيجين بعد لحظة صمت :

— لا تحدثها عني بشيء يا عزيزي ايجين

ثم شد على يد الفتى في تأثر وأسى . وفارقه ايجين الى قصر بوسيان فأدخله الخدم الى حجرتها الخاصة ، فما لبثت هي أن لحقت به فيها ، فوضعت يدها على كتفه ، ورأى الدمع في عينيها لأول مرة ، حين انتزعت منه الصندوق بيد مرتجفة فألقت به في نار المدفأة ووقفت ترقبه وهو يحترق ، وقد جف دمعها وجمدت معارف وجهها في أنفة وترفع ، فانقبض قلب الفتى لهذا الذي رأى ، وزاد إحساسه بحقارة الحياة وما تفيض به من آلام تكتوى بها القلوب الرقيقة الكريمة

ولم يفارق ايجين الفيكونتس تلك الليلة حتى انصرف جميع الناس وودعها وداعاً حاراً ، لأنها قررت منذ ذلك اليوم أن تعتزل المجتمع في ركن قصي من الريف

وكانت الساعة تقرب من الخامسة صباحاً حين فارقها عزوناً

نهاية النهاية

قضى ايجين المسافة بين قصر الفيكونتس وخان فوكير ــ وهي طويلة جدا ــ سيراً على قدميه تحت ندى الصبح الباكر الشديد البرودة ، برودة الهزيع الثانى من فبراير . وقصد على أثر وصوله الى حجرة جاره الشيخ ، فاذا بيان شون طالب الطب يعلن اليه أن الأمل فى إنقاذ الأب جوريو قد تلاشى . وأوى ايجين الى فراشه حزيناً ، فما انقضت ساعتان حتى أيقظه طالب الطب لينوب عنه فى ملاحظة المريض ، لاضطراره الى الخروج . وعلم منه ايجين أن حالة جوريو قد ازدادت سوءا :

ــ إنه لا يعيش إلا ساعات ، ولكن ليس لنا أن ندع المحاولة وبذل المجهود لانقاذه . وهو فى حاجة الى علاج كثير التكاليف ، وليس معى أنا درهم واحد ، وقد قلبت جيوب الأب جوريو ودولابه فلم أجد لديه دانقاً ، فكم معك أنت ؟

فقال ايجين :

ــ لم يبق معى إلا عشرين فرنكا . ولكنى سأقامر بها وأكسب . . .

ــ وإذا خسرت ؟

ــ أطلب مالا من صهريه وبنتيه

ــ وإذا لم يعطوك ؟ المهم الآن على كل حال ليس المال ، وإنما لف المريض بلبخة من قدميه الى منتصف الفخذ ، فى درجة الغليان ، فاذا صرخ كان هنـاك أمل فى شفائه . وسيساعدك كريستوف فى ذلك . ولا تغادره حتى أعود . واذا طلب ماء أعطه مما فى هذه الزجاجة . . .

وتنبه الشيخ لوجود ايجين ، ففتح عينيه وسأله بصوت متضعضع :

ــ هل تمتعتا بليلتهما ؟

فصاح بيانشون :

ــ إنه لايفكر إلا فى بنتيه . فقد قال لى الليلة الفائتة أكثر من مائة مرة « إنهما ترقصان الآن » . « انستازى تلبس الآن ثوبها الجديد . . . » وكان يناديهما باسميهما ، ويوجه اليهما كلاما أبكانى ، وأنا عصى الدمع

وعاد الشيخ يتمتم :

ــ دلفين ! إنها هنا ، أليس كذلك ؟ أنا أعلم أنها هنا

وتشنجت عيناه وهو يحدق فى جهة باب الحجرة ثم فى جدرانها . . فقال يبانشون :

— سأهبط لأوصى سيلفى بعمل اللبخ الحارة ، فهذا أوانها . . .

وبقى ايجين وحده عند قدمى الشيخ الذى يجود بنفسه . . . ومع هذا قد عرف ايجين بعد لحظات فى نوبة صحوة أخرى ، فسأله ايجين عن حاله فقال :

— أحسن . فقد بدأ الضغط الشديد على جبهتى يخف . هل رأيت ابنتى ؟ إنهما ستحضران بعد قليل . ستسرعان الى هنا متى سمعتا بمرضى . . . كم كنت أتمنى أن تكون الحجرة نظيفة حتى تليق باستقبالهما ، وأن تكون فيها نار للتدفئة

— إنى أسمع كريستوف صاعداً بخشب للتدفئة

— خشب ؟ ومن أين لى ثمنه ؟ لم يعد لدى درهم واحد . . هل كان الثوب الجديد جيلا ؟ . . شكراً يا كريستوف . ولكن ليس معى شىء أدفعه اليك . . .

فقال ايجين لكريستوف همسا :

— سأدفع أنا كل شىء لك ولسيلفى . . .

وعاد الشيخ يقول للخادم :

— لقد قالت لك ابنتاى إنهما قادمتان يا كريستوف ، أليس كذلك ؟ إذهب اليهما مرة أخرى ، وقل لهما إنى متوعك ، وإنى أشتاق أن أقبلهما وأن أراهما مرة أخيرة قبل أن أموت . قل لهما هذا ، ولكن بدون أن تفزعهما

وانصرف كريستوف باشارة من ايجين واستطرد الشيخ المريض :

— ستأتيان ، فإنى أعرف الناس بقلبهما . لعمرى ان هذه للسكينة دلفين ستحزن حزناً مبرحاً إذا أنا مت .. ونازى أيضاً .. لا أريد أن أموت حتى لا تبكيان .. والموت يا عزيزى ايجين معناه الحرمان من رؤيتهما ... فلا ريب فى أننى سأشقى أينما ذهبت ، الى جنة صرت أو الى نار .. فالجحيم الحق لدى والد بمعنى الكلمة هو حيث لا يكون بنوه ... ولكننى قضيت سنوات التحضير والتمرين على هذا الجحيم منذ تزوجت بنتاى ... أما نعيمى ، فكان فى بيتنا القديم فى شارع جوسيين ... واذا قدر لروحى أن تطوف بالأرض فى بعض الأحيان كما يزعمون أن الأرواح تطوف ، فلا ريب عندى أنها ستطوف بذلك البيت السعيد .. وإنى لأراهما الساعة كما كانتا فى تلك الدار ، تهبطان فى الصباح فتغردان فى سمعى : عم صباحا يا أبتاه .. فآخذهما بين ذراعى ، وأضعهما فى حجرى ، وأظل أداعبهما ساعة طويلة ، ثم نفطر معاً ، ونتغدى معاً ونتعشى معاً .. لقد كنت فى هذا الوقت أباً سعيداً . وكانتا متحابتين . رباه ! لماذا لم تبقيا صغيرتين ؟ .. آه ! ما أشد هذه الآلام التى تنتابنى .. ولو كانتا هنا ، وكانت يداهما الصغيرتان فى يدى ، لكنت أجلد وأقوى على احتمال آلامى الجسدية المبرحة .. فهل تعتقد حقاً أنهما ستأتيان ؟ كم كنت أتمنى أن أذهب أنا بدلا من كريستوف ، لأنهمو سيراهما ، أما أنا فباقٍ هنا !.. ولكنك

كنت معهما فى الحفلة الراقصة بالأمس يا ايجين ، فخبرنى كيف كانتا تبدوان ؟ لم تكونا تدريان طبعاً مبلغ مرضى .. يا لهما من مسكينتين ! انهما لا تزالان فى حاجة الى ، وثروتهما تحوطها المخاطر ... أشفونى سريعاً ، حتى أحاسب زوجيهما الوغدين ! اشفونى فلا بد لهما من المال ، وأنا أعرف من أين أحصل على هذا المال : سأذهب كما كنت أذهب وأنا فى شرخ الفتوة الى أوكرانيا واوديسا لأستورد القمح وأربح الملايين مرة أخرى من أجلهما . آه : انأوجاعى تثقل على احتمالى ! . . وسكت الأب جوريو لحظة كأنما يستجمع قوته لتحمل آلامه ثم تمتم :

— لو كانت ههنا لما شكوت .. ولماذا كنت أشكو ؟

ثم هدأت أنفاسه برهة طويلة حتى ظنه ايجين قد نام ، فلما دخل كريستوف تركه يفضيإليه بما لديه بصوت مسموع :

— سيدى ، لقد ذهبت أولا الى سيدتى الكونتس ولكنى لم أستطع مقابلتها لأنها مشغولة مع زوجها بأمر ذى بال . فلما ألححت خرج الى الكونت بنفسه وقال لى : أتقول ان السيد يحتضر ؟ ليكن خيرما يستطيعه أن يموت . أما الكونتس فأنا فى حاجة اليها فى الوقت الحاضر لاتمام مسألة مهمة ، فاذا أتمتها ذهبت اليه . وكان يبدو عليه الغضب فلما هممت بالخروج اذا بالكونتس تظهر فجأة وتقول لى : « قل لوالدى يا كريستوف انى مشغولة بالمباحثة مع زوجى ولا أستطيع ان أتركه الآن لأن الأمر يتعلق بحياة طفلى أو موتهما ، ولكننى سأذهب اليه متى فرغت من تسوية هذا الموضوع » . أما البارونة فلها قصة أخرى : فقد قالتلىوصيفتها: « لقد عادت سيدتى من المرقص بعد الخامسة صباحاً وهى الآن لا تزال نائمة ، واذا أيقظتها عاقبتنى . ولكنها متى استيقظت سأخبرها بسوء حال أبيها » وتوسلت اليها بلا جدوى ، فطلبت مقابلة البارون فقيل لى أنه خرج

فصاح راستنياك مغيظا :

— أما من واحدة منهما تخف الى أبيها ؟ سأكتب اليهما

فقال الشيخ المريض :

— أجل ما من واحدة ! فكلتاهما مشغولتان إما بالمشاكل أو بالأحلام . كنت أعلم أنهما سوف لا تأتيان . ويظهر أن الانسان لا يمكن أن يعرف حقيقة أبنائه إلا حين يحم قضاؤه . فاسمع نصيحتى يا ولدى ولا تتزوج ولا تنجب أولادا لأن بنيك قاتلوك لامحالة . تخرجهم الى الدنيا فيخرجونك منها . كلا إنهما سوف لا تأتيان . ! وكنت أعلم هذا منذ عشر سنينوكنتأردده بينى وبين نفسى فى بعض الأحيان ولكننى لم أجد فى نفسى من الشجاعة كفاء تصديقه

وجالت فى عينى الشيخ دمعتان وقفتا حائرتين بين المقلة والجفن دون أن تسيلا منهما

—... آه .. لو أننى كنت غنياً ولم أتنزل عن ثروتى لهما ، لكانتا الآن الى جوارى تلعقان خدى بقبلاتهما ، ولكنت الآن فى قصر مشيد جليل المجبرات . زاخر بالخدم ، تدفئه النار بغير

حساب ، ولكانتا الساعة لا يرقأ لهما دمع الى جوار سريرى هما وزوجاهما وأطفالهما . اما الآن فلا شيء من هذا كله ، لأنى بلا مال ، ولأنني أعطيت كل ما يمكن ان أعطى . كلا ! بل انني أفضل هذا الفقر المدقع الذى صرت اليه ، فان الفقير اذا شعر أنه محبوب أيقن ان هذا الحب خالص لذاته حقاً ؟ . كلا ! بل ليتنى كنت لا أزال غنياً ، فانه لا يحق للأب ان يكون فقيراً ، فما له هو اللجام الذى تجتمع به فى يده أعنة بنيه ! وباه.. هاهما تتوجان ماسامتانى إياه عشر سنين سوياً .. يا الهى ! إنك تعلم كم قاسيت منهما وكيف شربت من يديهما كؤوس الإذلال مترعة حتى الثمالة ، وكيف كانت شمس كل صباح تدخر لى طعنة من خنجر مسموم تغوص فى سويداء قلبي بسببهما أو من يدهما ، فلماذا يا إلهى تعرضنى اليوم لهذا العذاب الجديد ؟ ألم يكف ما تحملته تلك السنين العشر للتكفير عن جريمة حبي إياهما حباً أعظم مما ينبغى ؟ ان ابنتى كانتا هما الشر الذى صنعت أمام الله . كانتا هما موضوع خطيئتى ورذيلتى ! ان ابنتى كانتا عشيقتى ، كانتا خمرى التى أدمن عليها ، والميسر الذى لا أصبر عنه . وكم من مرة كنت أرى فى عينيهما انهما تخجلان منى ومن جهلى بآداب السلوك فى دنياهما الجديدة . ولكن لم تكن سنى تسمح بادخالى المدرسة من جديد.. رأسى تؤلمنى . آه لو فتحها لى الطبيب ليخف بعض هذا الضغط عليها.. بنتى انستازى دلفين ! ! أريد أن أراهما . ارسلوا اليهما الشرطة لتحضرا ولو بالقوة ! القضاء والقانون والطبيعة فى جانبي لإجابة هذا الطلب ! الى أين ينحدر الوطن والى أي هاوية يساق المجتمع إذا كان الآباء يداسون بالأقدام كما أداس ؟ أريد ان أراهما وأسمع صوتهما ، بمجرد صوتهما ، حتى ولو كانتا تقذفاننى بالشتائم . ولكن قل لهما إذا هما حضرتا لا تنظرا الى نظراتهما الفاترة كما تعودتا ان تفعلا معى ، وان كنت أتجاهل اننى لا أشعر بهذا الفتور . فقد أحببتهما كثيراً بحيث ارتضيت لنفسى مهانة ان أختفي وأتوارى لأراهما خلسة وهما تجتازان الطريق فى حفل من زينتهما وركبهما القاره . ولكن ها أننا أموت ميتة البعير ولا تخفان لرؤيتى فى ساعتى الأخيرة . أريد ابنتى ! أريدهما ، فأنا الذى صنعتهما

وتوفز لجلس فى فراشه وقد تشعث شعره الأبيض وتشنجت عيناه فهو فى حالة من الهياج العصبي الخطر ، فأخذ يهدئه ايجين :

— نم يا أبى فسأكتب إليهما ، ومتى حضر بيان شون سأتوجه إليهما بنفسى ان لم تكونا قد جاءتا

فأخذ الشيخ المريض ينشج بالبكاء ويقول :

— ان لم تأتيا ؟ إننى اذ أموت دون أن أراهما انشق غيظاً وينفطر قلبي كمداً ! بل ان الغيظ والكمد ليستوليان على وجدانى الساعة ، فها أننا أرى حياتى كلها فى هذه اللحظة كما لم أرها من قبل ، فقد انقشعت عن عينى غشاوة الغفلة التى زودتنى بها عاطفة الأبوة المفرط . ما دامتا لم تأتيا حتى الآن ، فهما لن تأتيا أبداً . ولكن لا يأس من رحمة الله ، فسيتولى أبناؤهما الانتقام



« أحشائي تحترق . . ضعوا شيئاً على رأسي . . ضعوا فوقها يدي بنتي »

لى . ماذا أقول ؟ بل هذه هى دلفين . ألم أقل لك من قبل أنها هنا.انها خير الاثنتين.فأوصيك بها يا ولدى إيجين خيراً ، أحبها وكن لها أباً من بعد أبيها . أما الأخرى فسكينة ليس لها فى الدنيا من يرعاها . آه . لقد زاد علىّ الوجع . اقطعوا رأسى ، فانه يؤلمنى ولا حاجة لى به . حسبى أن يكون لى قلب !

فقال إيجين وقد فزع للتطور الذى طرأ على حالة الشيخ :

— ياكريستوف ، ادع بيان شون حالا واحضر لى عربة . سأذهب يا أبى لأحضر ابنتيك بنفسى

— عنوة ! بالقوة ! خذ معك الشرطة ، وقل للحكومة وللنائب العام اننى أريدهما بأى شكل

— ولكنك كنت تلعنهما منذ لحظة

فبهت الشيخ وقال له باستنكار :

— من قال هذا ؟ أنت تعلم كم أحبهما وأعبدهما . ان مجرد رؤيتهما سوف يشفينى مما بى . فاذهب يا ولدى العزيز الطيب القلب على بركة الله . كم كنت أود أن أشكرك على طيبة قلبك ، ولكن ليس لدى ما أمنحك إياه إلا دعوات رجل شقى يقف على أبواب الآخرة . أريد أن أرى دلفين على الأقل لأوصيها بك نظير المعروف الذى صنعت معى . فاذا لم تأت الأخرى فهات دلفين ، فانها لن تعصاك وستأتى من أجلك . اسقونى ! أحشائى تحترق. ضعوا شيئاً على رأسى. ضعوا فوقها يدى بنتى ، فان هـذا هو دوائى الناجع ، رباه من يجمع لهما ثروة من جديد إذا مت أنا ؟ أريد أن أشفى لأسافر من أجلهما الى أودسا لاستيراد القمح

— هدىء روعك ، فستراهما هنا بعد قليل

— رأسى . أحشائى . انى أموت . انى أباركهما

وراح فى غيبوبة ، وفى هذه اللحظة دخل بيان شون ففحص عينيه وهز رأسه وقال :

— لا أظن أنه سيفيق من هذه النوبة . وخير له أن يموت لكى لايطول عذابه. والمال ! من أين لنا المال لاعداد كل ما يلزم ؟

فأخرج إيجين ساعته وقال لبيان شون :

— أودعها رهينة واقترض عليها ما يمكنك من المال . فانى لا أريد أن أضيع دقيقة واحدة، ولا بد أن أجد هنا ما لا أدفع منه أجر العربة عند عودتى من لدن هاتين البنتين الجاحدتين

أقسى من الصخر

ماوصل ايجين الى قصر ريستو وطلب مقابلة الكونتس حتى قيل له إنها معتكفة، فقال للوصيف :

— ولكنى حاضر من قبل أبيها الذى يموت فى هذه اللحظة

— ولكن أوامر الكونت ياسيدى مشددة

— إذا كان الكونت هنا فانى أريد أن أقابله

وبعد برهة طويلة قاده الوصيف الى صالون وجد فيه الكونت واقفا أمام مدفأة ليس فيها نار ، فقال له :

— ياسيدى الكونت إن والد الكونتس فى النزع الأخير فى هذه اللحظة ، وحالته مؤلمة ، فليس لديه فلس واحد ينفقه فى التدفئة أو العلاج وهو يطلب أن يرى ابنته قبل أن يموت

فأجابه الكونت ببرود :

— أظنك لاحظت أننى لا أكن للسيد جوريو حبا شديداً ، لأنه أفسد على ابنته وسبب لى شقاء مقيما . فموته وحياته لدى سواء ، فعندى الآن أمور أولى باهتمامى . أما الكونتس فحالتها لا تسمح لها بالخروج . ثم لا أوافق على مغادرتها البيت . فقل لأبيها إنها لن تذهب لرؤيته إلا بعد أن تفى بواجبها نحوى ونحو ابنى ، فاذا كانت تحب أباها حقا ففى استطاعتها أن تحصل على حريتها فى لحظة واحدة

— أنت معتاق السلطان على زوجتك ياسيدى الكونت . ولكنى ألجأ الى أريحيتك . فهل تعدنى بابلاغها أن أباها لم تبق له فى الحياة إلا سويعات وأنه قد صب لعنته عليها لتخلفها عن سرير موته ؟

— قل لها أنت هذا الكلام بنفسك

وقاده الى صالون آخر فوجدها غارقة فى الدموع حتى لقد تحركت شفقته عليها . وألقت على زوجها نظرة وجل ورعب فأومأ الكونت برأسه مرخصا لها فى الكلام فقالت :

— لقد سمعت كل شىء ياسيدى ، فقل لوالدى إنه لو عرف حقيقة ظروفى لغفر لى ، ولكن العذاب الذى يصب على أقوى من احتمالى

فانصرف ايجين مبهوتا وقد أدرك أن الكونت يعذبها عذابا جسمانيا ، ومضى من توه الى دلفين فوجدها فى فراشها

— إنى مريضة يا صديقى فقد أصابنى برد عند خروجى من المرقص وها أننا فى انتظار الطبيب

— حتى لو كنت فى النزع الأخير لما جاز لشيء أن يعوقك عن الذهاب الى أبيك . ولو أنك سمعت صرخة واحدة من صرخاته التى سمعتها لما احتججت الآن بالمرض

— لا أعتقد أن حالة أبى سيئة الى هـــذا الحد ، فالذى يقتله حقا أن يعلم أننى جازفت بتعريض نفسى للمرض بذهابى اليه . وسأذهب بمجرد انصراف الطبيب . ولـكن أين الساعة ؟ هل بعتها ؟

قال على سريرها وهمس فى أذنها :

— اعلمى إذن أن والدك لا يملك ثمن التابوت الذى لا بد من تجهيزه له الليـلة ، فرهنت ساعتك لأننى خالى الوفاض

فقفزت المريضة من سريرها وأسرعت الى درج أعطته منه كيس نقودها ، ودقت الجرس لوصيفتها وهى تصيح :

— إنى آتية معك يا ايجين ، فسألبس بسرعة . اذهب أنت وسأصل أنا قبلك . يا تيريز أخبرى البارون أننى أريد أن أ كلمه الآن فى أمر هام

وخف الفتى الى الخان مغتبطا بالبشرى التى يحملها للشيخ المسكين ، فلما وصل الى هناك فتح كيس البارونة الغنية البارزة فى الهيئة الاجتماعية ليدفع أجر العربة ، فاذا كل ما فيـه سبعون فرنكا

ولقى الطبيب والجراح الذى قام بفصد المريض خارجين ، فابتدره بيان شون قائلا :

— تشجع يا عزيزى ايجين ، فنحن فى نهاية النهاية ، ويلزمنا الآن أن نغير أغطية الفراش التى تلوثت بالدم وادع سيلفى لتساعدنا فى هذا

فلما أخبر ايجين مدام فوكير بالمطلوب قالت له :

— ياعزيزى السيد ايجين أنت تعلم أن الأب جوريو لم يعد يملك شيئاً ، فالأغطية النظيفة سأخسر ثمنها ولا عائد ، فضلا عن الأغطية الأخرى التى ستلزم للتابوت ، ثم أنت مدين لى حتى الآن بمائة وأربعة وأربعين فرنكا . زد عليها أربعين فرنكا للأغطية وغيرها مثل الشمعة التى ستعطيك اياها سيلفى ، فيكون المجموع نحواً من مائتى فرنك لا تستطيع أرملة مسكينة مثلى أن تتحملها ، فضع نفسك فى موضعى واعذرنى ، فان وفاة انسان فى خانى أمر يصرف عنه الناس ، وهذا الخان هو كل حياتى

فأسرع ايجين يصعد السلم دون أن ينطق بكلمة :

— بيان شون .. أين نقود رهن الساعة ؟

— هاهى فوق النضد ، وقد بقى منها نحو ثلاثمائة وستون فرنكا بعد أن سددت جميع التزاماتنا فى الصيدلية وغيرها

وهبط ايجين كالبرق الخاطف وقال للأرملة :

— هاك ياسيدتى ! خذى حسابك كاملا ، واطمئنى ، فالأب جوريو لن يطيل البقاء عندك

— يا سيلفى .. اخرجى الأغطية واذهبى

ثم همست فى أذن ايجين :

— لاتنس سيانى ، فانها ظلت ساهرة منذ ليلتين

وحمل الشابان الأب جوريو ليرفعاه فوق الفراش ، كل منهما من جهـة حتى تستطيع سيانى تغيير الأغطيـة ، وكانا راكعين لتسهيل العملية ، فانخدع الرجل المحتضر الذى ضعف بصره وغشاه الدمع ، فمد يديه فوجد فى كل ناحية من ناحيتى الفراش رأساً ، فجذب شعرها ثم غمغم فى ضعف شديد :

— يا ملاكى العزيزين ! ها أنتما . .

وكان الجذل ظاهراً فى كلماته الأخيرة التى فقـد بعدها الوعى ، فقد حسبهما ابنتيه . وقال بيان شون :

— هذه هى النهاية ، فسيظل هكذا بعض الوقت ثم يموت دون أن يتنبه إلى ذلك أحد ، لأن جهازه العصبى قد تعطل ، ولن يعى شيئاً ، ولن يئن أو يتأوه

وفى هذه اللحظة سمعت على الدرج خطوات امرأة شابة تصعد لاهثة . فقال ايجين :

— لقد وصلت متأخرة

ولـكنها لم تكن دلفين ، بل تيريز وصيفتها التى قالت :

— لقد نشبت مناقشة حامية الوطيس بين البارونة والبارون من أجل المال الذى طلبته لأبيها فأغمى عليها وحضر الطبيب ..

— كفى ياتيريز . لم يعد لحضورها جدوى ، فقد فقد الأب جوريو وعيه نهائياً

وفيما كانت سيلفى خارجة كادت تصطدم عند الباب بالكونتس التى دخلت فى هيئة مروعة وأخـذت تبكى حين رأت والدها ساكن الأوصال فى رقدته الأخـيرة فتناولت يده وجعلت تقبلها وتقول :

— اغفر لى ياأبى فانى لم أستطع الافلات إلا الآن بعد أن أذعنت . أبى ، كنت تقول إن صوتى خليق أن يخرجك من قبرك ويقيمك من الأموات فها أنذا أدعوك . لم يعد لى سـواك قلب يحبنى ويهتم بى فى هذا العالم حتى طفلاى سيكرهاننى مما جررته عليهما . خذنى معك ياأبى ، فقد تمت لى التعاسة ! حتى مكسيم دى تراى الذى كنت أظنه مخلصاً لى قد هاجر تاركا وراءه ديوناً طائلة ، وتأكد لى أيضا أنه كان يخوننى . وثروتى حملنى زوجى على التخلى عنها . فماذا

بني لي ؟ إن قلبك وحدك هو القلب الذى كان ينطوى لى على حب صادق ولكننى جحدته وتنكرت له

وأفهمت ايجين أنها تريد أن تخلو الى أبيها فنزل ليتناول شيئا من الطعام . وبعد لحظات قليلة سمع من أعلى صوت الكونتس تصرخ :

— مات أبي

وأسرع بيان شون يفحصه ، ثم هبط ليقول لسائر النزلاء :

— إنه مات فعلا

وحينئذ قالت مدام فوكير :

— الى الطعام أيها السادة فقد كاد الحساء أن يبرد

الدرس الاخير

مات جوريو . وأقبل النزلاء على الطعام قبل أن يبرد الحساء ، فلما انتهى الطعام قام ايجين وبيان‌شون لاعداد الواجبات الأخيرة لهذا الرجل المسكين الذى مات منبوذاً ممن عاش حياته كلها من أجلهم . وكان أمام الشابين أن يدققا فى كل شيء حتى يكفى مامعهما من مال قليل لاتمام مواراته التراب

توجها أول كل شيء لالتماس قسيس يقبل الصلاة على جثمان الميت أثناء الليل . وفى الساعة التاسعة مساء أو نحوها سجى الجثمان بين شمعتين موقدتين فى تلك الغرفة العارية ، وجلس إلى جواره القسيس

وقبل أن ينام ايجين سأل رجل الدين عن أتعاب الصلاة ومراسيم الجنازة ، ثم كتب كلمة إلى كل من البارون دى نوسنجين والكونت دى ريستو يرجوهما أن يرسلا من ينوب عنهما فى القيام بمصروفات الدفن . وأرسل كريستوف بالرقعتين ثم أوى إلى فراشه فنام نوما عميقاً لشدة ما كان يحسه من التعب

وفى الصباح ذهب الشابان — ايجين وبيان شون — لاعلان الوفاة لدى السلطات واستخراج التصريح بالدفن . ومضت بعد ذلك ساعتان وليس من خبر من قبل البارون أو الكونت ، فاضطر ايجين إلى دفع أتعاب القسيس

وطلبت سيلفى الطباخة البدينة عشر فرنكات أجراً لها على خياطة الكفن . فتشاور الشابان وقررا بعد الحساب والمراجعه أنه ليس فى طاقتهما أن يقوما وحدهما بجميع التكاليف ، فتطوع طالب الطب بيان شون بوضع الميت فى تابوته بنفسه دون معاونة سيلفى ، وأحضر التابوت مما يصرف للفقراء فى المستشفى الذى يعمل فيه للمران ، وبهذا لم يكلفه التابوت إلا مبلغاً يسيراً جدا ثم قال بيان شون لايجين فى سخريته المعهودة :

— امض إلى جبانة « بيرلاشيز » واشتر حوشاً بثمن مؤجل يحل بعد خمس سنين ، ثم أوص فى الكنيسة على صلاة جناز من الدرجة الثالثة . وإذا رفض الصهران والبنتان أن يدفعوا التكاليف ، فانقش على قبر المرحوم هذه العبارة

« هنا يرقد السيد جوريو »

« والد البارونة دى نوسنجين والكونتس دى ريستو »

« مدفونا على نفقة اثنين من الطابة »

ولكن ايجين لم ينفذ هـذا الرأى إلا بعد أن توجه إلى القصرين ، فوجد الأبواب هنا وهناك موصدة فى وجهه وقال له هذا البواب وذاك عبارة واحدة لم تختلف فى مؤداها

— سيداى لايقابلان اليوم أحدا ، فقد مات أبوهما ، وهما عليه غارقان فى أحزان أليمة !

وكان ايجين قد عرف بما خبره من المجتمع الباريسى أن الالحاح لا طائل تحته . وحز فى نفسه ألا يستطيع الوصول الى دلفين ، فكتب لها رقعة وهو فى حجرة البواب قال فيها :

« بيعى حلية من حليك حتى يحظى أبوك بنقلة لائقة الى مثواه الأخير »

وأقفل المظروف ورجا البواب أن يسلمه لتيريز الوصيفة كى توصله الى سيدتهـا ، ولـكن البواب سلمه الى البارون التى ألقاه فى نار المدفأة دون أن يفضه

▭

وسار الموكب المتواضع الى كنيسة قريبة ، لا يتبعه الا ايجين والخادم كريستوف . فهذا الخادم كان هو الشخص الوحيد الذى شعر بدافع لتوديع الشيخ المسكين ، فشد ايجين على يده شاكراً دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة

وأخيراً حضر كاهنان وشماس وعريف وتلوا أقصى ما يمكن من صلاة لم يتجاوز ما دفع فيها سبعين فرنكا . ثم تلوا مزموراً وبعض التراتيل . واستغرق هـذا كله عشرين دقيقة . ولما انتهت الصلاة وبدأ سير الجنازة من الكنيسة الى المدافن قال القسيس :

ـ ليس هناك مشيعون ، فى استطاعتنا اذن أن نمضى بسرعة حتى لا نتأخر ، فالساعة الآن منتصف السادسة

ولـكن فى اللحظة التى بدأ فيها تحرك العربة الجنائزية ، شوهدت عربتان فارهتان فارغتان على احداها شعار الكونت دى ريستو ، وعلى الأخرى شعار البارون دى نوسنجين . وتبعت العربتان النعش الى مقابر بيرلا شيز

وفى الساعة السادسة ووارى الأب جوريو التراب ، وقد أحاط بقبره خدم بنتيه الذين اختفوا باختفاء رجال الدين بمجرد تلاوة الصلاة الأخيرة على المقبرة

وبعد أن أهال اللحادان بعض حفنات من التراب وقف أحدهما الى الحفرة ومد يده الى ايجين يطلب أجره . ففتش ايجين جيوبه فلم يجد فلساً واحداً فاضطر الى اقتراض عشرين سنتيما من الخادم كريستوف . وكان هـذا على بساطته عاملا على زيادة وطأة الكآبة على نفس الشاب . وكان الجو رطباً ثقيلا على الأعصاب . فنظر الى الحفرة وذرف دمعته الأخيرة ثم عقد ذراعيه فوق صدره ووقف يرقب السحب الداكنة ، فلما رآه كريستوف على هـذه الصورة تركه وانصرف

فلما ألفى إيجين نفسه وحيداً صعد الى قمة المقبرة وألقى نظرة على باريس النائمة على ضفتي السين ، وقد بدأت الأنوار الأولى تشع فيها هنا وهناك . وكانت نظرة طافحة بالازدراء والتحدى

وأول ما فكر فيه من أعمال الزراية والتحدى لهذا المجتمع الراقى ، انه يمم من توه الى حيث يتناول العشاء على انفراد مع البارونة دى نوسنجين

الرواية القادمة

مغامرات مستر بكويك

تصدر في ١٥ يناير ١٩٥٢